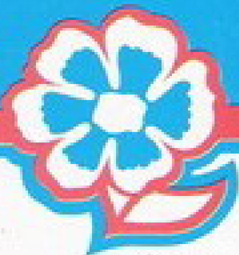
روايات رومانسية عالمية
عبير



سارا كريفن

٩١٥

الأغنية المتوحشة

روايات رومانسية عالمية

عبير

الأغنية المتوحشة

يقضي
الانسان عمره باحثاً عن الحب
لأنه السعادة الحقيقية وكثيراً ما يحلم
بملامح الحبيب المجهول، ويبقى منتظراً حتى
يصادفه في مكان ما . هكذا ظلت كاترينا مخلصة للأوقات
التي جمعتها بجيرمي في تورفيج قريتها الاسكتلندية ، وعدها
بالزواج. لكنها باتت وحيدة بعد سفره الطويل وموت عمها جيسي
ذهبت اليه في لندن وساقتها الاقدار الى مقابلة عمه جيسون المنتج
التلفزيوني الذي اصطحبها في ليلة مشؤومة كان يعلن فيها جيرمي
خطوبته على هيلين الثرية ضاع الحب وانكسرت الاحلام ولم يبق
امامها سوى جيسون الشهير والمحاط بالمعجبات. هربت تركت
حقائبها وكل حاجياتها وعادت الى قريتها الساكنة قرب
البحر كانت تعرف من تحب . لكن ترى من تتزوج ؟
والحب كالقضاء والقدر لا نستطيع
الاعتذار عن استقباله !

مكتبة زهران
liilas.com
١٥ شارع الشيخ محمد عبده - خلف الجامع الأزهر
ت : ٥١٢٩٥٥٠ - موبايل : ٠١٢٣٣٨٦٤١٠

١ ـ العريس الضائع

«هل أنت متأكدة يا فتاتي؟»

قالت السيدة ماكغريغور ذلك، وجسمها الممتلىء محشور في رداء مزيق، وهي تتوقف عن إعداد عجينة الكعكة وتحملق في ذلك الجسم النحيل والواقف في الجانب الآخر من طاولة المطبخ الكبيرة.

قالت كاتريونا موير بتأكيد كانت هي أبعد من أن تشعر به:

«موقنة تماماً. لا بد لي من الذهاب. إن آل ماكنتوش يريدون إخلاء ملكهم في أقرب وقت. وأشعر بعد بيع البيت بعدم الانتماء لهذا المكان بأي حال».

قالت السيدة ماكغريغور وهي تعكف على العجينة بعزم متجدد:

«لا تنتمين! وهو منزل عمتك الذي نشأت فيه كطفلة؟»

«إن آل ماكنتوش يملكونه الآن».

قالت كاتريونا ذلك وهي تذكّرها بالأمر وتشعر بغصة. فمجرد التفكير في ذلك كان لا يزال يؤذي مشاعرها. كان البيت الرمادي الضخم القائم خلف الطريق هو منزلها منذ وعت ذاكرتها، بل في الحقيقة منذ قتل والداها. انها تتمثّلهما مجرد صور غامضة في ذهنها. عندما قتلا في حادث سيارة، وهبطت عليها عمتها، شقيقة والدها غير المتزوجة وقريبتها الوحيدة التي كانت على قيد الحياة وقتئذ، وحملتها عائدة بها الى قرية تورفيج الصغيرة على الساحل الغربي لاسكوتلندا.

والآن، وبعد ذلك بثمانية عشر عاماً، العمة جيسي ماتت أيضاً، وكان بيت

موير قد بيع كذلك الى زوجين من غلاسكو.

قالت السيدة ماكغريغور، وهي ترد عليها:

«نعم انهم يتملكونه، ولكن الى متى؟ اذا كانت امرأة عظيمة مثل جيسي موير لم تستطع أن تجعل المكان يدرّ دخلاً، فليس من الأرجح اذاً أن تفلح في ذلك تلك المرأة الشعثة ذات الأصباغ هي وزوجها. إن هذا يا عزيزتي هو المكان الخطأ لاستقبال رواد الصيف. هذه هي حقيقة الأمر نحن بعيدان جداً عن فورت وبليام وعن الأماكن التي يأتي القوم لرؤيتها.

عقدت السيدة ماكغريغور ذراعيها، وصرخت في كاتريونا بشدة، قائلة:

«وكذلك أنت. تذهبين وراء هذا الفتى الذي لم يفكر فيك مرة واحدة طوال العام».

احمرّ وجه كاتريونا، وبدت في عينيها الخضراوين نذر عاصفة، وقالت محتجة:

«ليس هذا صحيحاً. انني أعلم أن جيريمي لم يأت هذا الربيع، ولكنه كتب إليّ».

قالت السيدة ماكغريغور بكل الثقة الهادئة التي تتمتع بها شقيقة مديرة مكتب البريد في القرية:

«لم يكتب لك لعدة أشهر، فلا يوجد أحد في هذه القرية إلاّ ويفكر في صالحك. وهم جميعاً يرددون عليك ما أقوله لك الآن. ان عناقاً بجوار شاطىء البحر لا يصنع زواجاً».

قالت ذلك وهي تومىء برأسها مؤكدة عبارتها لكاتريونا، التي التهب خداها احراراً.

ثم مضت تقول بلطف:

«لقد مررنا بهذا جميعاً يا فتاتي. إن الحب الأول شيء عظيم، ولكنه لا يدوم. وعندما يأتي الحب الحقيقي فستعرفين، تماماً كما عرفته مع السيد ماكغريغور».

تطلعت كاتريونا الى الوجه المستدير الممتلىء، والشعر الرمادي الملفف في

خصلات، وتخيلت السيد ماكغريغور الأصلع الصموت، وكادت تفلت منها رغم ضيقها ضحكة لولا أنها قمعتها. ماذا تعرف السيدة ماكغريغور عن ذلك السرّ الحلو الرقيق الذي شاركت فيه جيريمي خلال الأسابيع القليلة السحرية من العام السابق، عندما جاء الى تورفيج في جولة على قدميه، وبقي حتى اضطر للرحيل لكي يعود الى الجامعة؟

وعندما تذكرت جيريمي بشعره الأسود المجعد وعينيه الزرقاوين الضاحكتين، غصّ حلقها وغامت عيناها. قد تشاركا في المشي وركوب الزوارق والسباحة خلال تلك الأيام الذهبية التي بدت وكأنها ستدوم الى الأبد.

وفي إحدى الليالي، شهدا حفلاً في قرية مجاورة. وأدت كاتريونا، التي كانت تلعب القيثار وتغني الأغاني الشعبية بالانكليزية والاسكتلندية، فاصلاً خلال هذا الحفل. وبعد ذلك عادا الى القرية في سيارة أنغوس دنكان عبر الطريق الضيق الذي تكثر في وسطه مجموعات العشب، وكان الطريق الوحيد الذي يربط تورفيج بالعالم الخارجي. هنالك جذبها جيريمي اليه، وقال هامساً في أذنها:

«لم أكن أعرف أن في وسعك الغناء هكذا».

احمرّ وجه كاتريونا التي اعتادت صراحة عمتها وأهل القرية، وقالت في ارتباك:

«انه لا شيء».

ألقى جيريمي ببصره الى السماء، قائلاً:

«لا شيء، انك يا حبيبتي ستكونين رائعة في لندن. فلديك موهبة حقيقية وأنت لا تدرين، إن شركات الأسطوانات توّاقة دائماً الى الجديد. وتلك الأغاني التي غنيتها بتلك الهمجية».

فصاحت في غضب:

«الاسكتلندية ليست لغة همجية. وأود لو أستطيع أن أتحدث بها باتقان بدلاً من

غنائي لبضع أغنيات فقط».

قال جيريمي يحدثها:

«حسناً، ولكنها تبدو غريبة عندما لا يعتادها المرء. وأعتقد أنه يمكنك بالمساندة الملائمة والتعزيز المناسب أن تكوني رة اسكتلندا على نانا موسكوري».

قالت كاتريونا وهي تسند رأسها الى كتفه:

«سوف أشعر بالشتاء أكثر لو أنني عرفتها».

قال وهو يضع أصابعه تحت ذقنها، فيحملها على التطلع اليه:

«في الحقيقة يا تريونا، يجب ألاّ تضيعي نفسك في هذا البرّية. ستكون لك فرصة أكبر في لندن».

نظرت اليه في حيرة، وقالت:

«برّية. كنت أظنّ يا جيريمي انك تحب تورفيج».

«انني أحبها، ولكن لأنك فيها. وما كنت لأقضي بغيرك يوماً ثانياً. فهي مفرطة الهدوء بالنسبة إليّ. وأنا أحب الاثارة».

تذكّرت كاتريونا ذلك الآن، في دفء مطبخ ماكغريغور، وشعرت بمعنوياتها تهبط. كان هذا هو الخلاف الو... الذي وقع بينهما. وعندما رجع أخيراً الى لندن، وعد بالعودة في الربيع التالي اذا استطاع.ولكن عيد الفصح أقبل ومضى ولم يظهر له أثر، ثم قبل عيد العنصرة بقليل، ماتت العمة جيسي متأثرة بضعف قلبها.

كانت كلمات جيريمي وهما يفترقان هي التي تذكّرتها كاتريونا في غمرة حزنها، عندما أدركت أنه لا بد من بيع البيت سداداً لديون شتى، وللرهن الذي شعرت بأنها عاجزة عن تحمّله.

أعطاها ورقة مطوية قائلاً:

«هذا عنواني. احتفظي به. فهناك ستجدينني اذا احتجت إليّ».

وعانقها وتعلّقت به ووجهها مبتلّ بالدموع، وهي تعده بانتظاره. وتواترت

رسائله في البداية وبادلته المراسلة بلهفة، ثم بدأت تقل، وان ظلّ يتحدث عن الوقت الذي سيجتمعان فيه سوياً. وهي الآن تسلّم بأنه مرّت خمسة أشهر من غير كلمة منه. وكانت قد حافظت على كبريائها وطمأنت نفسها بأن جيريمي مشغول بدراساته، وأن أمامه امتحانات هامة فيها كما قال في إحدى رسائله.

وكان هذا القول، والعنوان الذي اكتنزته بعناية في صندوق حليها بالبيت، هما اللذان رسما لها طريق العمل بعد أن أصبحت وحيدة.

أفاقت من حلم يقظتها لتجد السيدة ماكغريغور ترقبها بقلق، فابتسمت لها قائلة:

«سأكون على ما يرام. أنا أعرف ذلك. لن أتحمّل البقاء بعد ذهاب عمتي والبيت. ولا أستطيع تحمّل ما سوف يفعله آل ماكنتوش بالمكان. فضلاً عن أن لندن ستكون مغامرة. وسيكون جيريمي هناك».

ثم ابتسمت مرة أخرى على نحو أكثر مرحاً، وقالت:

«وسأبعث اليك بقطعة من كعكة الزواج».

قالت السيدة ماكغريغور في شيء من السخرية اللاّذعة:

«آمل ذلك. متى عثرت على زوج».

وأسرّت بهواجسها في ذلك المساء الى زوجها وهما يتناولان طعام العشاء، وقالت وهي تتنهد:

«ولكنها مصمّمة. إن لندن مكان بعيد. تذهب اليه ليتحطّم قلبها انني أشك في أن تكون الفتاة المسكينة تعلم حقيقة ما هي مقبلة عليه».

وبعد ذلك بأسبوع، كانت كاتريونا تقف في ذهول تام وسط صخب يوستون وهي تتساءل نفس التساؤل. وكانت الضجة المنبعثة من مكبرات الصوت، وضجيج المرور في الخارج، والصياح في المحطة، والقطارات وهي تصل وتمضي، تملؤها بذعر مستبد. وشعرت بعد السكون السائد في تورفيج، أن طنين أسلاك البرق التلغرافية يكون مدوياً حتى في وسط النهار، حتى كادت أذناها

تنفجران. أما الأسوأ من ذلك، فهو أن الجميع فيا عداها كانوا يعرفون أين هم ذاهبون، ولم تلبث أن تبعت الجموع الى الحاجز حيث سلّمت تذكرتها. وفي الخارج، في ضوء الشمس، شعرت بمزيد من الاضطراب. كان عنوان جيريمي موضوعاً بأمان في جيب داخلي في حقيبة كتفها الجلدية، ولكنها لم تعرف كيف يمكن الذهاب اليه. ونقلت حقيبتها في ارتباك الى الكتف الأخرى، وأسندت حقيبة غيتارها الى منصة بائع جرائد، وأخذت تتفقد ما حولها بنظراتها. وكان معظم ما تملكه من مال، وهو مبلغ يقل عن المائتي جنيه، محفوظاً في أمان في صندوق صغير بحقيبة كتفها، ولكنها احتفظت بجنيهات قليلة في حقيبة يدها لحالات الطوارىء. ومشت بعد أن التقطت غيتارها الى الصف الواقف في انتظار سيارات التاكسي. وعندما حلّ دورها، وضعت غيتارها في المقعد الخلفي للسيارة فسألها السائق:

«الى أين؟»

أخرجت كاتريونا قصاصة الورق ودفعتها إليه عبر الزجاج الفاصل. فنظر فيها وصفر قائلاً:

«انه طريق طويل».

وتفرسّها من شعر رأسها الأسود الضخم المجعد الى كتفيها الى معطفها الدوفيل وبنطلونها الجينز وحذائها الخفيف، وقال:

«سيكلّفك هذا كثيراً».

«إن معي نقوداً».

وعندما انتهت الرحلة، كانت كاتريونا قد استبدّ بها الاضطراب على نحو لم يجعلها تهتم كثيراً بالمبلغ المسجّل الذي قطعته. فنقدت السائق أجره وشفعته بنفحة سخية، فتساءل متأثراً فيا يبدو بهذه اللفتة غير المتوقعة:

«هل أنتظر؟»

تطلّعت كاتريونا الى البيت الذي وقفت أمامه السيارة. لم يكن كما

تصورته. كان بناء ضيّق الشرفات، جدرانه بالية، وطلاؤه يحتاج الى تجديد، وحديقته الأمامية غير معتنى بها. وجعدت كاتريونا أنفها بلا وعي. لم يكن هذا هو مكان اللقاء الذي تختاره لفرصة تجمعها بجيريمي. عضّت شفتها وتمنّت لو كانت كتبت اليه مقدماً تخبره بحضورها. وأدركت الآن وهي تقف في الشارع القذر أنها تشعر بخشيتها من أن يمنعها من ذلك. ووجدت من العسير للحظة أن تتذكر حتى شكل جيريمي، واستبد بها الذعر من جديد. فالتفتت الى السائق وقالت بتردد:

«يحسن بك أن تنتظر».

وصعدت الدرج القصير المكسور ودقت الجرس، فقال السائق:

«لعله لا يعمل. اطرقي الباب بدلاً من ذلك».

امتثلت لنصحه. وبعد لحظة طالت، فتح الباب لتواجهها امرأة نحيلة في لباس متسخ من النايلون الأزرق، وشعرها مثبت تحت ايشارب من الشيفون الأصفر. قالت بسرعة وهي تهمّ باغلاق الباب:

«لا توجد أماكن خالية».

فتقدمت كاتريونا بعزم جديد، وقالت:

«إنني أبحث عن أحد الساكنين عندك. السيد جيريمي لورنه».

«أنت كذلك حقاً؟ حسناً، لقد تأخرت كثيراً يا عزيزتي، فقد رحل!»

قالت المرأة ذلك وهي تتفرسّها، وتطيل نظرتها الى خصرها. فدارت الدنيا بكاتريونا، وهتفت:

«رحل؟ الى أين؟»

كان هذا تطوّراً لم تحسب حسابه في مخطّطها. فقد قال لها جيريمي انها ستجده هنا وصدّقته. جاهدت لتحتفظ بهدوئها. وقالت المرأة:

«رحل منذ ثلاثة أشهر، ويقيم الآن في غرفته سيد هندي مهذّب. لا بدّ أن أذهب الآن يا عزيزتي».

تحركت كاتريونا بغريزتها قائلة:

«وهل ... هناك عنوان جديد لها؟»

«دعيني أتذكر. بعضهم يترك العنوان وبعضهم الآخر لا يترك. فهناك من لا يريدون أن يتعقبهم أحد. ولكني موقنة أن الأمر ليس كذلك بالنسبة إليك. انتظري هنا حتى أتبين لك الأمر».

وقفت كاتريونا وحيدة تغالب دموعها. ماذا لو لم يكن هناك عنوان؟ لابد أن هناك بيتاً للشباب يمكن أن تأوي اليه في الوقت الحاضر. ولعل السائق يعرفه. وهو يبدو رقيقاً. ومع ذلك ففي رأسها لا تزال تدوي كل التحذيرات من الثقة بالأجانب في المدن الكبيرة. لم تشعر بوحدة مثلها تحس الآن، حتى ولا في جنازة العمة جيسي، حيث كان تعاطف أهل القرية سنداً لها. أما هنا فلا أحد لها إذا لم تستطع أن تعثر على جيريمي.

عادت اليها المرأة تبسط ورقة قائلة:

«هاك أيتها الجميلة. السيد لورد؛ بلموند غاردنز».

شكرتها كاتريونا وأخذت الورقة، ووجدت المرأة لا تزال تمد يدها، فتساءلت للحظة اذا كانت تريد منها أن تصافحها، ثم أدركت الأمر فنفحتها جنيهاً اختطفته المرأة ودسته في جيبها. رجعت كاتريونا إلى التاكسي الواقف وأعطته العنوان الجديد، فقال وهو ينطلق:

«هذا مكان أنيق ممتاز بلموند غاردنز».

أدركت كاتريونا لأول مرة قلة المعلومات التي تعرفها عن جيريمي. لقد كانت تعرف أنه ابن وحيد، وأن والديه على قيد الحياة، ولا شيء أكثر من ذلك. ولم يخطر لها خلال تلك الأيام المشمسة السعيدة في اسكتلندا أن تتحرّ الأمر على نحو أكثر عمقاً، فقد فضلت أن تتذكر دفء عناقه وبريق عينيه وهو يتطلع اليها بتلك الطريقة الخفية التي تعزلها عن سائر العالم. هذه الأمور كانت تبدو على نحو ما واقعية بالنسبة إليها أكثر من اهتمامها بمعرفة عائلة جيريمي، وأصدقائه،

وسائر حياته في لندن التي لم تكن قد شاركت فيها بعد. وكانت تدرك بالطبع أنه سيكون لها وضع مماثل في حياته. أما الآن فهي ليست على مثل هذا اليقين.

وأدركت وهي تتطلع من نافذة السيارة أن المنطقة التي دخلتها الآن كانت أفضل بكثير من تلك التي اعتاد أن يعيش فيها جيريمي من قبل. كانت صفوف المنازل هنا عالية ومتسعة، وكانت الأشجار تحف بالشوارع في خطوط متسقة.

انعطف السائق يميناً الى ساحة صغيرة في وسطها متنزه صغير مسور به مروج خضراء ومقاعد وأحواض زهور، وكانت البيوت المحيطة به مرتفعة وأنيقة ذات أسوار حديدية مشغولة على نحو دقيق، ولكثير منها أحواض على النوافذ ملأى بالزهور، فلم تملك كاتريونا أن أطلقت صيحة سرور ودهشة فقال السائق وهو يتوقف:

«قلت لك ذلك. ها نحن قد وصلنا ـ رقم ١١. هل أحمل لك متاعك؟»

«كلا. أستطيع أن أتدبر أمري. شكراً».

بدأت كاتريونا تضطرب من جديد. وعندما مضى التاكسي واختفى في منعطف، شعرت وكأنما فقدت صديقاً لها. ونضح العرق في كفيها فمسحتهما في جانبي بنطلونها وهي تعلق حقيبتها على كتفها وتلتقط غيتارها. وحملقت في الواجهة البيضاء للبيت، وواجهها باب قرمزي اللون ولحظت وهي تعد درجات السلم الست الضيقة التي تقود اليه، جرساً نحاسياً براقاً تعلوه لافتة في الجدار عليها اسم، تكاد حروفه السوداء أن تقفز اليها. وقرأت بارتياح ج لورد ضغطت الجرس. وسمعت على الفور وقع خطوات داخل البيت وتقلصت عضلات معدتها. وبللت شفتيها الجافتين وهي تقاوم غريزة الفرار بأسرع ما تستطيع، بعد أن وصلت لمواجهة لحظة الحقيقة. ولكنّ التي فتحت لها الباب هذه المرة كانت امرأة صغيرة الجسم نظيفة الملبس في رداء أسود ومريلة. تطلعت اليها متسائلة، فحاولت كاتريونا أن تتحدث بثقة لم تكن تشعر بها:

«السيد لورد من فضلك».

نظرت اليها المرأة متفحصة، وقالت:

«لا أدري... لست موقنة يا آنسة... أهو يتوقع مجيئك؟»

«نعم».

قالت كاتريونا ذلك وهي تعذر نفسها لهذه الأكذوبة الصغيرة، فقد أبلغها جيريمي أن في وسعها المجيء في أي وقت.

«أرجوك إبلاغه بأن الآنسة موير هنا».

أبقت المرأة الباب مفتوحاً، وتراجعت لتسمح لكاتريونا بالدخول قائلة:

«تفضلي يا آنسة موير، سأخبر السيد لورد. لعلك تودين ترك متاعك في البهو».

شعرت كاتريونا بالحرج لأن تفعل ذلك. كان البهو واسعاً، جدرانه بيضاء لامعة وأرضية يتفاوت فيها اللون الأسود والأبيض. وكان ثمة خزانة منحوتة تستند الى أحد الجدران وتحمل فازة صينية طويلة، فوضعت حقيبة كتفها والقيثار في ركن كانت تأمل ألاّ يلحظ وجودها فيه أحد، وتبعت المرأة الى باب على اليمين.

«هل لك أن تنتظري هنا يا آنسة؟»

أومأت كاتريونا برأسها بلا كلام. لم يسبق لها أن شهدت مثل هذه الغرفة. كانت الجدران مغطاة بورق من اللون البيج، يتكرر في السجادة السميكة، والستائر التي تصل الى الأرضية والمفروشات الفاخرة من نسيج متماثل تجتمع فيه ظلال ألوان الأحجار الكريمة الزرقاء والخضراء. وفغرت كاتريونا فمها لدى ما أحسّت به من تأثير اختلاط اللونين، برغم أن عمتها جيسي كانت تقول لها دائماً أن الأزرق والأخضر لا يمكن رؤيتهما معاً. كما دهشت بسائر قطع الأثاث القليلة، مثل بعض الموائد وخزانة من خشب الورد من الطراز القديم، ورف رخامي عند المدفأة يحمل مجموعة من تماثيل الكلاب الخزفية الصينية الرائعة.

شعرت كاتريونا كأنها مأخوذة. مادخل جيريمي بكل هذه الرفاهية. انها

لم تفكر أبداً في احتمال أن يكون ثرياً، ولكنها لا تجد أي تفسير آخر لهذا الأسلوب من الحياة الذي يتجاوز كل ما يمكن أن تتخيله.

نظرت فيما حولها. لماذا جاءت؟ وأية حماقة ارتكبت؟ ليس ثمة مكان لها هنا. كان التناقض بين إفلاسها وبين ما يحيط بها الآن مهيناً لها. وأسوأ من هذا كله، فقد ترك حذاؤها علامة قذرة على السجادة!

انبثقت الدموع من عينيها وسارعت نحو الباب، ولكنه فتح في الوقت نفسه تقريباً، وتوقفت كاتريونا وهي تشهق. فقد أطلّ عليها رجل طويل يرتدي روباً من الحرير الأسود وتتدلّى من إحدى كتفيه بإهمال منشفة، وكانت قدماه وساقاه عاريتين. وقد تدلّت على جبهته خصلة من شعره الأسود. رفع يده ولوّح بها في صبر نافد، وتساءل بعينين رماديتين باردتين:

«من أنت؟»

كان الأمر أكثر مما تحتمل. الرحلة الطويلة، وقلة النوم، وخيبة الأمل الأولى، ثم الآن هذا الغريب يتفحصها بنظراته كأنها سلعة غير جذابة بقيت على مائدة البيع والمساومة. قال في صوت يماثل برودة عينيه:

«أغنانا كلامك! أنت يا آنسة موير... تقولين انني كنت أتوقع مجيئك؟»

قاومت كاتريونا دموعها التي كانت تنذر بالتغلب عليها تماماً، وقالت في حزن:

«لست أنت... بل جيريمي».

ألقى اليها نظرة طويلة، ثم أغلق الباب قائلاً:

«جيريمي؟ كان يجب أن أعرف... وماذا أتى بك الى هنا؟»

حدّقت فيه بعجز تام، وقالت:

«ألا... ألا يسكن هنا؟»

جاءها الرد قوياً:

«كلا بحق السماء. من أعطاك هذه الفكرة؟ سأدق عنقه اللعين إذا ...»

«أوه، كلا... كلا. انها صاحبة المنزل... صاحبة المنزل القديم الذي كان يسكن فيه. قالت انه ترك هذا العنوان بعد أن انتقل اليه. وعندما رأيت اسمه على لافتة الباب. اعتقدت...»

وتضاءل صوتها وهو يتفرسها بتجهم.

«ليس اسمه أيتها الشابة ولكنه اسمي. وهذه شقتي. وفي آخر هذا البهو غرفة نومي التي أود أن أعود اليها الآن، بعد أن زال سوء الفهم البسيط هذا. لقد وافقت بالفعل على السماح لجيريمي بأن يكون بريده على هذا العنوان لبعض الوقت، ولكن هذا كان منذ أمد بعيد».

وفتح الباب وأبقاه هكذا في انتظار مرورها، واستطرد قائلاً:

«وهكذا اذا سمحت بأخذ هذه الكومة الغريبة في ركن البهو، فان في وسع كلّ منا أن يذهب في طريقه».

وبرغم محنتها بدأت كاتريونا تغضب، ذلك أنه لم يسبق أن عوملت بهذه العجلة في حياتها من قبل، ولم تكن العمة جيسي لتسلك إزاء كلب ضال مثل هذا السلوك الذي يعاملها به. وكان ردّ فعلها الأول أن تفعل كما طلب، وأن تخرج من هذا البيت ومن حياته بدون أن تنظر الى الوراء. ومع ذلك فمن الواضح أن في وسعه مساعدتها في العثور على جيريمي، وهو أمر بدا لها أهم من إنقاذ كبريائها.

قالت في ارتباك:

«آسفة لتطفلي. سأكون سعيدة لأن أدعك بسلام اذا ما أعطيتني العنوان الحالي لجيريمي».

قال باقتضاب:

«محال. مع السلامة».

وواجهته كاتريونا على الفور وقد أسفرت عن استيائها:

«ماذا تعني؟ أتقول انك لن تخبرني بمكانه؟»

قال بنعومة، وكاتريونا تتوق الى صفعه بقوة على وجهه الأسمر الساخر:

«هذا تصورٌ مطابق من جانبك. والآن، امضي في طريقك يا ابنة العاصفة اليتيمة».

«انني لست...»

بدأت كاتريونا تفكّر في حرارة. ثم لاح لها فجأة، في مثل الضربة الصاعقة، أنه محقّ تماماً. إنها الآن يتيمة. وتطلّعت اليه في صمت كالبكماء، وهي عاجزة عن منع دُموعها من الانهيار. قال في لهجة قارصة:

«أوه، بحق السماء، أتظنين أنني لم أتعرض لهذه الحيلة مائة مرة؟ انها لم تفلح في الماضي أبداً، واني متأكد أنها لن تفلح الآن يا قرّة عيني».

قالت كاتريونا وهي تمسح عينيها بقوة بمنديل وجدته في جيب سترتها:

«لست قرّة عينك! وأعتقد أنك خسيس حقير».

«لست أشك في أنك تعتقدين ذلك. ولكن تذكّري انك جئت الى هنا بزعم كاذب، فلا تبدأي بالشكوى عندما تسوء الأمور».

وأشار لها نحو الباب، فصاحت محتجة:

«لم يكن زعماً كاذباً. لقد سألت عن السيد لورد. واعتقدت أنه سيكون جيريمي».

دفع شعره عن جبهته، وقال في كلل:

«وبدلاً منه كنت أنا. صدمة سيئة لك ولا شك. ونصيحتي لك أن تعودي من حيث أتيت بأسرع ما في وسعك، وأن تنسي ما حدث».

قالت بهدوء:

«لا أستطيع العودة. ثم انني جئت الى هنا بطلب من جيريمي ولن أبرح حتى ألقاه. ولن يكون مسروراً عندما أخبره بالطريقة التي عاملتني بها».

قالت ذلك في نبرة انتقامية، ولكنه بدلاً من أن ينزعج، ابتسم ابتسامة باهتة، وقال:

«لا أظن انني سأخاف كثيراً من هذه الناحية. أخبريني. لماذا تريدين لقاءه بمثل

هذا الالحاح؟»

صفرت له خدها قائلة:

«هذا شأني!»

«بالعكس. لقد جعلته شأني كذلك. هذا الى أن والدته تلحّ عليّ منذ سنوات لأن أهتمّ بالفتى على نحو يناسب اهتمام العم بأبناء أخيه. أوه...لقد نسيت. لم أقدّم نفسي. أنا جيسون لورد عم جيريمي».

قالت كاتريونا بلا مبالاة:

«لم أعرف أن لجيريمي عماً».

«لم يحدثني عنك أيضاً. حسناً يا آنسة موير، انني أنتظر».

دسّت كاتريونا يديها في جيبي سترتها لتخفي ارتعاشتها. وقابلت نظرة الاحتقار في عيني جيسون الرماديتين بوميض من عينيها الخضراوين، وقالت:

«لعله أيضاً لم يبلغك باننا نتبادل الحب، وأننا سنتزوج».

كان يرتكن بلا مبالاة الى الباب، ولكنه تصلّب عند هذه العبارة فوراً. وتفحصتها بنظرته مرة أخرى، بنفس الازدراء، ولكن بتقييم كأنه يكشفها، حتى أن حمرة الخجل تصاعدت الى وجنتيها. قال ببطء:

«انت ستتزوجين جيريمي، ما الذي أوحى اليك بهذه الفكرة بحق الجحيم؟»

«هو نفسه، في الصيف الماضي».

«يعني من وقت بعيد. فهل لي أن أسأل أين كان هذا التعاهد على الخطبة؟»

«في تورفيج، انها قرية صغيرة على الساحل الغربي لاسكتلندا. وهي ليست معروفة تماماً ولكن جيريمي عثر عليها وهو في جولته، وبقي بها».

قال في لهجة شبه وحشية:

«اراهن أنه فعل ذلك!»

قالت متوسلة:

«فهل تسمح لي الآن بمقابلته؟»

«كلا! بل أعتقد أنه ينبغي الآن أن تستخدمي تذكرة العودة الى تورفيج وأن تنسي تماماً أنك عرفت جيريمي».

صاحت في غضب:

«لن أفعل شيئاً من ذلك! إنّ من حقي مقابلته. لقد جئت الى لندن وسأبقى فيها مهما قلت».

وقف أمامها وأمسك بذراعيها بإحكام، وعيناه متجهمتان، وقال:

«اسمعي! انني أقول هذا لصالحك. انسه وعودي الى موطنك. ألا يمكنك أن تثقي بكلمتي وأن هذا أفضل ما تفعلين؟»

قالت في غضب:

«لن أثق بكلمتك حتى اذا قلت لي في أي يوم نحن من أيام الأسبوع!»

سقطت عنها يداه بسرعة جعلتها تهتز قليلاً، وتشعر بدوار، فتساءل:

«ما بالك؟»

«انني أسفة. الجو هنا مفرط الدفء».

«ليس على هذا النحو. هل تناولت طعاماً؟»

«تناولت بعض الشطائر في القطار».

تذكرت باعياء بأن هذا كان من وقت بعيد. وقال ساخراً:

«لا بدّ أن هذا كان مريحاً جداً. حسناً. يجدر بك أن تخلعي هذه السترة المفزعة وأن تأتي معي».

قالت بأمل:

«لنقابل جيريمي؟»

«كلا. لتتناولي بعض الطعام قبل أن يغشى عليك. وأريدك أن تغادري هذا المكان على رجليك، لا محمولة على نقالة!»

أوشكت كاتريونا أن تلقي بعرضه المهين في وجهه عندما خطرلها بالفعل كم

هي جائعة، فتبعته في خضوع عبر البهو الى مؤخرة المنزل حيث يوجد مطبخ كبير براق.

كل شيء فيه يلمع، وبه من الأجهزة ما لم تكن كاتريونا قد رأته إلاّ في صور المجلات. وشعرت بنوع من الحسد. وبدا لها من الظلم أن تكافح العمة جيسي في حياتها، بينما يعيش هذا الرجل البغيض في جو من الرفاهية لا يحتاج معه إلى رفع إصبعه. ومالبث أن نادى المرأة التي كانت قد أدخلت كاتريونا فجاءت مسرعة:

«السيدة بيرش، هل تستطيعين إعداد إفطار لهذه التافهة المتضوّرة؟»

وأشار الى كاتريونا إشارة عابرة جعلتها تشتعل غضباً، بينما استطرد قائلاً:

«ستكونين آمنة مع السيدة بيرش. وسأنهي حلاقتي وأرتدي ملابسي».

واختفى، بينما شرعت السيدة بيرش في إعداد المائدة والطعام، ونصحتها بالجلوس عندما وجدتها مختنقة الوجه. فأذعنت كاتريونا قائلة:

«لقد تلقيت نوعاً من الصدمة».

«كان في وسعي اخبارك أنه لا يقابل أحداً في مثل هذا الوقت من الصباح. وعندما رأيت هذا الفيتار معك، قلت لنفسي إنّ هذه المسكينة ليس أمامها فرصة».

«فيتاري؟»

«انه لا يقدّم فواصل موسيقية يا عزيزتي. وكلها قضايا تجارية وأفلام تسجيلية. لقد ظننت انك تعرفين ذلك».

حدّقت فيها كاتريونا في حيرة تامة، فقالت في استهجان:

«انك تعرفين من هو، أليس كذلك؟»

«كل ما أعرفه أنه عم جيريمي».

«يا الله! إنه منتج تليفزيوني يا عزيزتي. وله برنامج هنا والآن، الذي يعرض يوم الاثنين. وقد حصل فيلمه التسجيلي عن مدمني الخمر في العام الماضي على جائزة».

«أخشى أنني لا أشاهد التليفزيون. فليس عندنا جهاز».

ذهلت السيدة بيرش وكأن كاتريونا قد انبثق لها فجأة رأس ثان، وقالت:

«وكنت أظن طوال الوقت أنك تزعجينه من أجل وظيفته».

احمرّ وجه كاتريونا، وقالت:

«كلا، لا شيء من ذلك».

وضعت أمامها كوباً من الغريب فروت، وقالت:

«انني مسرورة لذلك».

ثم أسرّت اليها بصوت منخفض:

«كلّما علت شهرته يا عزيزتي، كان ذلك أسوأ. إن كثيراً من الفتيات يعتقدن أن مفتاح الشهرة والحظ وغير ذلك بيده. فهو يعرف كثيراً من الناس في التليفزيون، وكلمة واحدة منه يمكن أن تفعل الأعاجيب. وانني لمسرورة لانك لست واحدة منهن».

ما كادت كاتريونا تفرغ من طعامها، حتى عاد جيسون لورد. وكان في بذلته السوداء يبدو أكثر بغضاً. وكافحت رغبة دفعتها للتراجع وهو ينزلق على مقعد قريب منها. قال في برود:

«هذا أفضل. فأنت تبدين الآن أقرب الى البشرية».

وضعت السيدة بيرش قدحين من القهوة أمامها وانصرفت. قالت كاتريونا في تصلّب:

«لقد جعلتني ممتنة لك».

فقاطعها قائلاً:

«رتي هذا الامتنان اذاً، من فضلك، بالعودة الى بيتك».

«ليس لي بيت!»

تحوّلت لهجته الى برودة الثلج مرة أخرى، وهو يقول:

«لقد ظننت انك ستنتقلين للاقامة مع ابن أخي!»

قالت في تعاسة:

«كلا. لقد قلت لك، إننا سنتزوج».

تطلّع بنظرة ذات مغزى الى يديها الخاليتين من الخواتم. وسأل:

«أننا مخطوبان رسمياً؟»

ترددت في بؤس، وهي لا ترغب في أن تشارك هذا الرجل ولو بجزء من سرّها الثمين. ثم رفي بطء بالغ حلّت أعلى زرّين من بلوزتها ذات الأكمام البيضاء، وجذبت السلسلة الفضية التي تضعها حول عنقها. كان هناك جسمان معدنيان يتدلّيان منها، مفتاح صغير وخاتم فضي به حجر. إنها حلية رخيصة، ولكن جيرمي كان قد اشتراها لها يوماً ما في فورت ويليام. وقال لها هامساً وهو يضعها حول اصبعها ويقبلها: الى أن أتمكنّ من شراء خاتم مناسب. وشعرت عندئذ بانها كادت تموت من فرط السعادة. وبدت بعض هذه الغبطة التي تذكّرتها في وجهها وهي تمدّ راحتها المبسوطة بالخاتم الى جيسون لورد. وطال الصمت ثم قال بصوت خال من أية عاطفة:

«فهمت».

وتطلعت اليه في حيرة، ولكنّ عينيه كانتا مغلقتين وهو ينظر الى دخان سيكارته المتصاعد.

قالت وصوتها ينمّ عن التوسل:

«ستدعني أقابله، أليس كذلك؟»

أطفأ سيكارته بعنف مفاجيء وقال:

«أجل، أجل يا آنسة موير لقد فزت. سآخذك اليه هذا المساء».

لم تصدّق فوزها، ولكن هذا التأخير غير الضروري ضايقها في الوقت نفسه على ما يبدو، فتساءلت:

«ولماذا ليس الآن؟»

«لأنه مسافر، وسيعود الليلة. ان أمه ستقيم حفلاً. ولم أكن أنوي الذهاب اليه، ولكنني سأذهب الآن، وسآخذك معي».

قالت كاتريونا على الفور:

«ولكنني لن أدعك تفعل ذلك».

لم يكن ذلك يجري على النحو الذي خططته للقاء جيرمي أن يتمّ اللقاء في حفل تبدو فيه متطفلة.

قالت:

«سأكون متطفلّة على مثل هذا الحفل. ثم ليس لديّ ما أرتديه له».

«هذه هي الصيحة الخالدة للمرأة. ولكنها يمكن أن تكون صادقة في حالتك. كما انك لن تكوني متطفلّة. ستذهبين كضيفة لي. إن ماريون تتوقّع مني دائماً أن أصطحب صديقة ما لحفلاتها».

شعرت كاتريونا بموجة نفور تتصاعد في أعماقها لفكرة اصطحابها كصديقة له. وقالت في ارتباك:

«انني موقنة من أن هناك أناساً آخرين تفضّل اصطحابهم».

ردّ على الفور:

«عشرات!»

ثم انحنى الى الأمام فجأة، ولمست أصابعه الطويلة انحناءة عنقها، وأجفلت وكأنما مسّها لهب مفاجيء، ولكنه قال:

«لا تكوني حمقاء، انني توّاق فقط لأن أعرف ما هذا».

كان المفتاح الذي يشترك مع الخاتم في السلسلة. قالت في اضطراب خفيف:

«هذا هو مفتاح صندوق نقودي».

تساءل بحاجبين مرفوعين:

«صندوق نقود؟ أي صندوق نقود؟»

وهكذا وجدت كاتريونا نفسها بحكم الظروف تخبره بأمر العمة جيسي وبيع بيت موير. واستطردت:

«وعندما تمّت تسوية كل شيء، كان لديّ نحو مائتي جنيه. أنفقت بعضها على

تذكرتي وسيارة التاكسي. ولكن الباقي في الصندوق في حقيبة الكتف».

«كنت تحملين كل ما تملكين من مال في هذه الدنيا وأنت تطوفين لندن هذا الصباح! وماذا لو تعرّضت للسرقة؟ أنت يا فتاتي العزيزة لا تؤتمنين على الخروج بمفردك».

قالت كاتريونا في استياء:

«أستطيع أن أرعى نفسي ونقودي».

«أيمكنك ذلك الآن؟ بالفعل يمكنك على نحو يجعلك تخطئين الطريق الى شقة رجل غريب، وتتقدمين بكل أنواع المطالب، وتبقين لتناول الافطار بدون أن يساورك خاطر عما ستضطرين الى إعطائه في المقابل».

«انني مستعدة تماماً لأن أدفع لك».

ولكنه أسكتها بوضع إصبعه على شفتيها المنفرجتين. فسرت فيها قشعريرة غريبة. وقالت لنفسها أنه لم يسبق أن لمسها إنسان تحتقره كما تحتقر هذا الرجل.

«ولكن، فلنفترض انني طلبت الدفع عيناً لا نقداً»

قال ذلك وعيناه تأسران عينيها، وأدركت تماماً أن تنفسها قد أسرع بغير إرادة منها. ووجدت نفسها تقول في هدوء مدهش:

«سأصرخ طلباً للسيدة بيرش!»

«انك تفترضين انها ستكون في صفك. حسناً، لعلها تكون كذلك. إنها ضعيفة إزاء الشاردين والضالين».

ثم بحركة لامبالية أشعلتها غضباً ترك المفتاح والخاتم يستقطان في فتحة صدرها. وشعرت بدفئهما على نحو مزعج من أثر أصابعه، وأحسّت من جديد بتلك القشعريرة. قال وهو ينزلق عن كرسيه:

«حسناً، هذا وقت ذهابي الى الاستديو، وذهابك الى الفراش على ما أظن».

شهقت كاتريونا قائلة:

«الفراش!»

«بالطبع، لا تقولي لي انك نمت كثيراً في ذلك القطار ليلة أمس».

«لا. ولكنني لا أستطيع النوم هنا».

«ولم لا؟ أرجو ألاّ تبدأي في التصرّف كعذراء مصابة بهستيريا. قلت لك انني ذاهب الى العمل، وسأجعل السيدة بيرش توقظك في نحو الثانية والنصف، ثم أحضر في الثالثة لأصطحبك للتسوق».

«التسوق؟»

«هل يجب عليك أن تكرّري كل كلمة أقولها؟»

قالت وهي تفكّر في مالها القليل، وفي أنه ليس في وسعها أن تذهب الى جيرمي وهي خالية الوفاض تماماً.

«ولكني لست في حاجة الى التسوّق».

«بل تحتاجين الى رداء للحفل».

قال ذلك ببرود، ثم انصرف قبل أن تستطيع مجادلته. وبعد لحظة سمعت صفق الباب الأمامي، فاستندت الى المائدة ورأسها يدق. وضغطت بأطراف أصابعها على جبهتها وهي تطلق تنهيدة خفيفة. إن فيه كل ما يستحق الازدراء، بل انه يستعذب على نحو شاذ إثارة أعصابها. ولم يمنعها من التقاط حاجياتها والفرار بأسرع ما تستطيع إلاّ خاطر ساورها بأنه سيأخذها الى جيرمي في المساء.

وما لبثت السيدة بيرش أن جاءت تدعوها الى النوم بصوت عطوف ووجدت الفراش ليناً ودافئاً فتمدّدت فيه باسترخاء، وغفت.

٢ـ صفعة في القلب

وأيقظتها يد على كتفها. كانت السيدة بيرش تحمل صينية القهوة.

«سيعود السيد لورد قريباً. ولا بد من استعدادك، فهو يكره الانتظار.»

تملّكها إغراء بأن تعلن عدم اكتراثها بما يحب السيد لورد وما يكره، ولكنها أدركت أنها في هذه الظروف ستكون فظة.

«إن الحمّام يقع عبر الردهة. وسأضع هناك مناشف نظيفة اذا أردت أن تأخذي دوشاً.»

«أشكرك... لقد كنت بالغة العطف.»

«هذا من دواعي سروري. وانني آمل أن نتقابل مرة أخرى يا آنسة. واذا كان لي أن أقول...»

ثم أخفضت صوتها وأسرّت اليها قائلة:

«لو كنت مكانك لما ارتديت هذا الجينز. لست في الغرب هنا على أي حال. إنه مناسب لكينغز رود لكنني لا أعتقد انك ستذهبين هناك...»

قالت السيدة بيرش ذلك وانصرفت، وفرغت كاتريونا من قهوتها وانزلقت من الفراش. كان الجينز والقميص موضوعين على مقعد منضدة الزينة، فالتقطتهما وعلت وجهها علامات التمرد. كل ما لديها في حقيبة الكتف هو رداءان من القطن صنعتهما في الاسبوع الماضي، وبعض السويترات الصوفية. وما لبثت أن نفضت شعرها الأسود بقوة عن وجهها وخطت الى الحمام. كانت تسوّي شعرها في شكل ذيل الحصان عندما عاد جيسون لورد. سمعته يعبر البهو

وهو يصفر ثم يتوقف خارج بابها قائلاً:

«أأنت مستعدة يا آنسة موبرا؟»

«مستعدة تماماً.»

والتقطت سترتها الدوفيل وخطت الى الباب، ولدهشتها لمحته يبتسم لها ساخراً عندما ظهرت في البهو. قال وهو يتفحصها:

«انني أجد الفتاة التي تلتزم بمبادئها. تعالي يا سندريلا، فسوف تذهب الى الحفل الراقص.»

تبعته ودمها يغلي الى الباب الأمامي، وهبطت الدرج الى السيارة المصقولة ذات اللون البيج التي كانت في انتظارهما... وحاولت كاتريونا أن تلتفت الى كل منعطف تمرّ به السيارة، ولكنها سرعان ما تملّكها الذهول. كانت الشوارع أوسع الآن، وحركة المرور أكثف، وظهرت المحال بدل المنازل وشاهدت كاتريونا من اللافتات التي تعلن عن المسارح والمطاعم مما لم تكن تحلم بوجوده أبداً. قالت بتلقائية غريزية، وان أسفت بعد ذلك لما تبديه من سذاجة:

«انني لم ار مثل هذا العدد الكثير من الناس من قبل.»

«في أيام الآحاد، ستجدين الشوارع في مثل هدوء تورفيج.»

وجدت كاريونا نفسها بعد دقائق في محل ضخم، وكانت يد جيسون لورد تحت كوعها تدفعها حثيثاً بين الجموع وهي ترمق المعروضات الفاخرة من الايشاربات وحقائب اليد وتشمّ روائح وهي تمر في قسم التجميل. وقال جيسون:

«هل نصعد بالمصعد أو بالسلم الكهربائي. انني آسف، فأنا أعاملك كطفلة ولكنك تبدين صغيرة جداً في هذا الجينز وشعرك معقود الى الخلف.»

«أعرف، مثل الضالة الشريدة! ثم انني لم اصعد بالسلم الكهربائي ابداً!»

«هيا اذاً. استندي اليّ اذا شئت.»

«الحاجز يكفي!»

وغاصت قدماها في سجادة كثيفة، وكانت ثمة موسيقى ناعمة تتردد. وفي كل مكان ملابس علقت على الموديلات، ومشبوكة على اطارات من الأسلاك، ومدلاة على حواجز وحوامل دائرية. وشعرت بأنها تحلم، ثم دهمها خاطر جعلها تضطرب فتعلقت بكم جيسون لورد وهي تقول:

«نقودي! لقد تركتها في حقيبة الكتف!»

التفت اليها وقال:

«حسناً، وماذا في ذلك؟»

«ليس معي ما يكفي لشراء شيء هنا!»

«لم أشر عليك ابداً بأن تحملي مالاً كافياً. والآن تعالي. إن أمامنا الكثير. أولاً - إننا لا نعرف اذا كنت ستجدين هنا ثوباً تحبينه.»

شهقت كاتريونا قائلة:

«ولكن هنا مئات من الأثواب.»

«أنت امرأة غير عادية اذا كان هذا يشكل فارقاً ما. آه، ها هو الشخص الذي نريده.»

ودفعها نحو سيدة رمادية الشعر في رداء أسود أنيق، تقف بجانب حامل للمعاطف وهي تدرس بعض الأوراق.

«مرحباً يا سيدة كوثيرت، إننا في حاجة لمساعدتك.»

«السيد لورد!»

ابتسمت المرأة ابتسامة ساحرة، ثم انطلقت منها صيحة دهشة وهي تلتفت نحو كاتريونا وتراها بملابسها تلك.

قال جيسون لورد وهو يمسك بكاتريونا من كتفيها ويدفعها الى الأمام:

«انها ستذهب الى حفل السيدة لورد معي، وليس لديها ما ترتديه. فماذا في وسعك أن تفعليه لها؟»

درستها السيدة كوثيرت وقد احمرّ وجهها. وقالت بحذر:

«حسناً، هنالك إمكانيات. ماذا تحتاجه؟»

قال جيسون لورد وهو يطلق كاتريونا ويتراجع:

«كل شيء. وشعرها يا سيدة كوثيرت انني لا اعرف من يتولّ زوجة أخي، ولكن...»

قالت السيدة كوثيرت:

«انها الآنسة باربارا سأتصل الآن تلفونياً بالصالون، وأرى إن كان في وسعها أن تحدد موعداً يدخل في قائمة مواعيدها.»

قال وهو ينظر في ساعته:

«جميل - نلتقي في المطعم بعد ساعتين!»

«سأرسلها اليك هناك.»

شعرت كاتريونا بالغضب يجتاحها من الداخل، كأنهما يتحدثان عن دمية من تلك الدمى الواقفة في أنحاء المحل! ثم من الذي سيدفع ثمن هذا كله؟ لا بد لها أن تجد مكاناً تعيش فيه حتى يتم زواجها من جيريمي، وهي لا تستطيع أن تتحمّل انفاق، ولو جزء يسير من مالها المحفوظ على رداء حفل لا تحتاج اليه. ولكن جيسون لورد كان في طريقه الى الاختفاء، وكانت السيدة كوثيرت تقودها الى غرفة تجربة الأزياء.

وقفت كاتريونا فيما بعد في المساء أمام المرآة في غرفة النوم الصغيرة بالشقة وهي تتطلع الى نفسها غير مصدّقة. كان الرداء مثل خضرة عينيها. وكان صدره المنخفض موشّى ببلورات متألقة وعلى الكتفين شرائط ضيقة من اللون نفسه. والجزء الأسفل من الساتان يصل الى الأرض ويخفي، حذاء قدميها العالي الكعبين. وداخلها العجب وهي تفكّر في أنها ستدربلا حقيقة.

وكان شعرها، قد قصّ على نحو يشي بالخبرة، قد ترك ليسترسل ناعماً ومتألقاً الى كتفيها، ليلتف عند الطرفين. ومكياجها خفيفاً، وقد استخدمت فيه ظلال العين والماسكرا على نحو ما أرشدتها الفتاة في صالون التجميل. وشفتاها تبرقان

بلون وردي خفيف وعلى منضدة الزينة كانت حقيبة سهرة صغيرة مرصعة بالبلورات، فالتقطتها ووضعت على ذراعها دثار الكتف الذي كان في لون ثوبها، ومضت عبر البهو الى الغرفة التي قابلت فيها جيسون لورد من قبل. وكان يقف مستنداً الى رف المدفأة وفي يده كأس. وتطلع نحوها فتوقفت في اضطراب وهي تنتظر أن يبدي ملاحظة شائكة، ولكن الصمت طال، وشعرت على نحو غريب بخيبة أمل.

ودعاها الى تناول بعض الشراب فاعتذرت شاكرة. وتناول منها الدثار ووضعه على كتفيها، وشعرت بلمسته لبشرتها العارية فتحركت بعيداً. ومضت بها السيارة وقتاً طويلاً في صمت. وظلت تسترق اليه النظر ولكن عينيه كانتا مثبتتين على الطريق فلم تر منه إلا جانب وجهه الصارم. قالت:

«إن الثوب فاضح»

قال بدون أن ينظر اليها:

«لا أقول ذلك. انه يكشف قليلاً فقط أكثر مما اعتدت. هذا كل شيء».

فقالت في حرارة:

«انني لم أعن هذا، وأنت تعرف ذلك... انني أقصد الثمن»

«لا تقلقي بشأنه. فهو يدخل في حساب الأسرة، إن لوالدة جيريمي حساباً هناك كما لا بد حزرت. ويمكننا أن نضيفه الى حسابها اذا كنت تفضلين ذلك.»

«لن تفعل شيئاً كهذا، انك تسخر مني مرة أخرى»

«قليلاً. لماذا لا تنسين مسألة الثمن هذه وتبدأين التفكير فيما ستقولينه لجيريمي؟ من المؤكد أن هذا أهم من أي شيء آخر. ركزي على الحوار يا قرة عيني... وانسي كل شيء آخر.»

«ألتمس ألا تناديني يا قرة عيني»

«أعرف ذلك، ولهذا يا قرة عيني، أقولها أكثر»

«كي تضايقني فقط»

«أنت تقتربين من الطعم بطريقة جميلة منتظمة»

حدقت كاترينا في الظلام عبر زجاج النافذة. كانت تعرف أن والدي جيريمي يعيشان خارج ستينز قرب النهر. وكانت تفترض أنه سيأتي عليها يوم تألف فيه هذا الطريق، والبيت الذي سيذهبان اليه. ولكنها الآن شعرت بضياع، وقد أفزعها أن تدرك اعتمادها المطلق على هذا الغريب بجانبها. لقد صدقت قوله إن هنالك حفلاً، ولكنه قد يأخذها الى أي مكان آخر.

أبطأت السيارة ثم انعطفت عبر بوابة بيضاء لتسلك طريقاً ضيقاً. ورأت كاترينا أنوار بيت كبير وسمعت وقع موسيقى منتظمة. وعندما أوقف السيارة وفتح لها الباب، ظلت ساكتة للحظة وهي تستجمع شجاعتها فتسائل:

«هل أنت باردة القدمين؟»

كان يسألها إن كانت خائفة، ولكنها تعمدت أن تسيء فهمه، وقالت:

«انني أشعر بدفء تام، أشكرك.»

وأطبقت يده على يدها وهو يساعدها على النزول من السيارة، وكادت للحظة أن تضغط على أصابعه مثلما يضغط على أصابعها، ولكنها تذكرت في الوقت المناسب من يكون، والمعاملة التي اضطرت الى تحملها من جانبه، فانتزعت يدها بعيداً.

وذهلت عندما عادت الى صوته النبرة القاسية وهو يقول:

«تعالي اذاً يا آنسة موير. هذا ما اردته، فاستمتعي به.»

وقادها بحنكة بين مجموعات من الناس كانوا يتحدثون في البهو الى غرفة واسعة. ولاحظت كاترينا ان هنالك نوافذ فرنسية مفتوحة في أحد الجوانب تقود الى ما يبدو الى بيت كبير للنباتات. وقال جيسون:

«ها هو كليف. لا يمكن أبداً أن يكون بعيداً عن المشروبات. استعدي يا قرة عيني. انت على وشك مقابلة أخي المحترم، ووالد جيريمي.»

وكان كليف لورد أقصر قليلاً من أخيه. له شعر منحسر قليلاً وكرش بدأ

يبرز. وبدا أكبر سناً أيضاً من جيسون. ولكن كاثريونا لمحت في ابتسامته بعض ما ذكرها بجيريمي، فهشّت له.

«لا أظن أنني رأيتك هنا من قبل مع جيسون يا آنسة موريه»

قالت وهي تبتسم له وتتجاهل ابتسامة جيسون الساخرة:

«أرجو أن تناديني بكاثريونا»

وغمغم جيسون لأخيه:

«لا أظن أنك تعرف كم تتشرف يا كليف. وعلى فكرة متى تكون اللحظة الكبيرة؟»

«أوه، عن قريب. ومع ذلك فانني لا أرى حاجة الى كل هذه الضجة. لقد حدث نفس هذا الهراء في يوركشاير في الأسبوع الماضي، ولكنك تعرف ماريون لا أحد يغلبها بالطبع.»

«بالطبع..تعالي يا جميلتي لا نريد أن يفوتنا شيء»

شعرت كاثريونا بغضبها يتصاعد، وتساءلت:

«ما الخبر؟ أين جيريمي؟ لا بد أن أراه وحده بضع لحظات.»

«ستراه الآن.»

وجذبها عبر البهو الى غرفة غاصة بالناس. وناولها بعض الشراب. وظهر كليف بجوارها متألقاً وقال:

«والآن، عليّ أن أقوم بمهمتي.»

ومضى بين الجمع. وبينما كانت كاثريونا تلتفت الى جيسون، على شفتيها توسل بأن يصحبها فوراً الى جيريمي، خط على المكان سكون مفاجيء. وتلفتت حولها في ذهول، وأخيراً، لمحت جيريمي. كان يقف في نهاية الغرفة مع سيدتين. كانت إحداهما، على ما أيقنت كاثريونا على الفور، والدته. كانت طويلة شقراء الشعر، ترتدي ثوباً غالياً، وتتلهى في عصبية بخواتمها. وأدركت كاثريونا في الوقت نفسه، وهي غير مصدقة، أن السيدة الأخرى، ولم تكن أكثر من فتاة في

الواقع، تتعلق بذراع جيريمي على نحو يوحي بالامتلاك. وكان يرتدي بذلة المساء، وقد حلق لحيته وقص شعره. وكان يبدو مختلفاً عما تصوّرته كاثريونا وهي منزعجة. ثم التفت الى الشقراء المكتنزة الجميلة بجواره وابتسم لشيء تقوله، وجعلته هذه الابتسامة يبدو لكاثريونا في صورة جيريمي المألوف المطمئن من جديد.

ورنّ صوت كليف في الغرفة:

«والآن أيها الأصدقاء، ارفعوا كؤوسكم. فسنشرب نخب جيريمي وهيلين نتمنى لهما حياة مديدة وكل السعادة!»

وقفت كاثريونا فاقدة الحس، وأصابعها تقبض على كأسها بينما كان جيريمي ينحني ويقبّل الفتاة، التي ابتسمت ورفعت يدها ليتمكن الجميع من رؤية الخاتم الماسي المتألق الذي يزيّن يدها.

أطلقت كاثريونا صيحة صغيرة مخنوقة، وارتفعت بها الغرفة وانخفضت ومالت. وسمعت صوت كأسها تتهشم على الأرض وهي تستدير وتجري. وحدقت بها الخادمة مستفسرة، بينما كاثريونا تجاهد لتجذب حلقة الباب الأمامي التي كانت بمثابة مقبض. ويداها تنزلقان وهي تشعر بهستيريا تتصاعد في داخلها. وأمسكت يدا جيسون بكتفيها، وقال بصوت هادئ:

«تعالي الى بيت النباتات يا عزيزتي.»

وكانت قبضته محكمة. وبدا لها أن محاولة التخلص منها كمحاولة التحرر من رذيلة ما. ولم يعد لديها القوة على الصراع. فتركته يقودها عبر الغرفة التي خلاها في البداية. ورفع ستاراً مخملياً طويلاً فمرّت كالآلة. ولو كانت الظروف عادية لابتهجت كاثريونا وسط هذا الجو من الروائح والمشاهد الرائعة. المصابيح تتدلى من حبال ممتدة عبر السقف الزجاجي، وأضواؤها تنعكس من صفوف الأوراق والشتلات اللامعة ومن بركة صغيرة منخفضة. وسمك صغير زاهي الألوان بين الحصى والزنابق. وقفت كاثريونا تتطلع اليه وذهنها يرقب

بانعزال تام كل حركة سريعة وكل موجة مائية. ورغم الجو اللطيف المعتدل، فقد شعرت ببرودة الثلج.

دفع جيسون اليها بكأس شراب قائلاً:

«اشربي هذه ولا تسقطي الكأس هذه المرة. فكؤوس الخدمة غالية الثمن، كما تدركين كاسكتلندية».

جرعت الشراب وشعرت بحرارته في حلقها وساعدها ذلك على مواجهة الموقف. فقالت وصوتها على وشك الانهيار:

«لقد كنت تعلم، كنت تعلم».

فوضع قدمه على الحافة المنخفضة للبركة، وقال وهو يرتشف رشفة من كأسه:

«كنت أعرف بالطبع».

«ولم تخبرني؟»

«كلا».

فقالت هامسة وعيناها تغشاهما الدموع التي لم تسمح لها بالانهيار:

«كيف يمكن أن تكون بهذه القسوة؟»

بدا وجهه غاضباً وهو يحملق فيها قائلاً:

«كان لا بد أن أكون قاسياً لأكون عطوفاً! ولقد بذلت جهدي لتخويفك، وحتى للتخلص منك. قلت لك أن تعودي الى اسكتلندا. ولكن لا... لم يكن شيء يعترض الآنسة كاثرينا موير. أليس كذلك؟»

قالت وهي تحاول السيطرة على صوتها المرتعش:

«ولماذا لم تخبرني بالحقيقة؟»

تطلّع اليها بثبات وقال:

«لأنه لا يوجد ما كان يمكن أن يقنعك بأنها الحقيقة. لقد تصوّرت جيريمي في قالب البطل، وأنا، بالقطع، شرير المشهد. وكان يمكن أن تنبذي أي تحذير أقترحه اليك عن وجود هيلين باعتبار أن له دافعاً أبعد».

وقفت صامتة للحظة، ممزقة بين صواب ما قال والشقاء الذي يوشك أن يغمرها. وكأنما أحسّ بصراعها فناولها منديلاً أبيض. وكانت هذه الحركة التي تنم عن رعاية مفاجئة من جانبه بمثابة القشة الأخيرة، فانحطّت بجسمها على مقعد من البامبو المجدول وتركت الزمام لدموعها. وفيما عدا تناوله لكأسها، لم يحاول لمسها. ولولا وهج ولاعته المفاجيء وهو يشعل سيكارته لما شعرت تقريباً بوجوده.

ولمّا عادت اليها سيطرتها على نفسها وبدأ نحيبها ينحسر، انتصبت في جلستها ببطء وهي تخشى مراقبته لها وسخريته من منظرها المثقل بالهموم. ولكنه كان يجلس بجوار البركة يحملق في طرف حذائه. وجاهدت لتبدو هادئة.

«من هي من فضلك؟»

تطلّع اليها قائلاً:

«هيلين؟ أوه أنها الفتاة الثرية المسكينة الأصل، والدها يعمل بصناعة الصوف والأسرة تقيم قرب برادفورد. وقد قابلت جيريمي في كينتربول منذ نحو عامين».

«اذاً كان قد عرفها طوال هذا الوقت، فكيف كان بوسعه أن يكون معي على الصورة التي أعرف؟»

هزّ كتفيه قائلاً:

«لم يكن لديّ وقت أعطيه لجيريمي، كان مدلّلاً على نحو ملعون عندما كان طفلاً. ولست أعتقد أن كليف أدرك كم هو مدلّل إلا بعد فوات الأوان. أما ماريون فهي حمقاء، الى حد ما، ولكنني ما كنت أظن أن مشاعرها يمكن أن تكون خالية في أعماقها بوجه خاص. وربما يكون جيريمي قد أخذ منها هذا الجانب».

قالت بصوت مهتز:

«المسألة كذلك اذاً؟»

ردّ بخشونة:

«وماذا تريدين مني أن أقول؟ الأمر كله خطأ فظيع. أتظنين أنك أنت الفتاة التي أحبها، وأن ما عليك إلاّ أن تعودي الى تلك الغرفة وانت تبدين كالملكة، ليصبح لك على الدوام؟»

همست وشفتاها ترتعشان:

«لقد أحبني. أحبني. انني أعرف ذلك.»

«ربما لفترة. اذا كان لي هذا عزاء لك. ولكنني أؤكد لك أنه حتى اذا كان قد أحبك كما تعتقدين، فانه لم يكن ليتخلّ عن مال هيلين من أجلك. ولم تكن ماريون لتدعه يفعل ذلك أيضاً.»

«أيها الشيطان!»

فأطلق ضحكة خفيفة قائلاً:

«يا لسندريلا المسكينة! قطعت كل هذه المسافة لتجد أميرها الفاتن قد تحوّل الى نبات اليقطينة، وعليها أن تعود الى بيتها مع ذي اللحية الزرقاء!»

حدّقت كاتريونا في المنديل الذي كانت تمسك به، ولاحظت في طرفه الحرفين الأولين من اسمه وتذكرت أن اسم جيريمي يطابق الحرفين. وبدأت عيناها تسخنان بالدمع من جديد. فقال جيسون بحسم وهو ينهض:

«أوه... لا... لقد نلت من هذا ما فيه الكفاية يا آنسة موير. ولعلك قد رفعت من درجة الرطوبة هنا وقتلت الأنواع النادرة التي تملكها ماريون. والآن لا بد أن نتحدث بصراحة.»

قالت في يأس، وهي تلمس ثوبها بنفور:

«وهل هناك ما يمكن قوله؟ انني لا أفهم لماذا جئت بي الى هنا على هذا النحو»

قال ببرود:

«انك اذاً أقل قدرة على التصوّر مما ظننت. إن هذا الثوب الذي ترتدين كان مجرد وسيلة للتنكر. هل تظنين أن أحداً هنا الليلة قد ألقى عليك نظرة ثانية إلاّ لمجرد أنك فتاة بالغة الجاذبية؟ لو كنت قد اكتفيت باعطاء العنوان لك وتركتك

تظهرين بهذا الجينز اللعين وحقيبة الكتف تلك، لظلّوا يتساءلون عنك وقتاً طويلاً! أكان هذا ما تريدين؟ كان الجميع سيحدّقون بك ويضحكون... تأكدي من ذلك يا طفلتي. حسناً. لقد شعرت بمهانة. ولكن لا أحد يعرف ذلك سوانا... وجيريمي على ما أظن. أعتقد أنه لمحك وأنت تخطئين في محاولة الخروج. وقد بدا كأنما هو مضروب بفأس لتوه. ولكن بالنسبة الى الآخرين، فأنت فتاة جيسون الجديدة، شئت أم لا.»

«لا بد أن أنصرف.»

«أمامنا أمور تناقشها الآن.»

قالت بهدوء:

«ليس عندي ما أناقشك فيه يا سيد لورد.»

فرمى سيكارته ووطأها بقدمه، قائلاً:

«لا بأس. انك متضرّرة وغاضبة لأنني أنزلتك من السماء السابعة بصدمة. ولكن الأمور كانت سترغمك على النزول يا كاتريونا. ألا ترين ذلك؟ جئت الى لندن بمحض إرادتك، ورأيت جيريمي كما كنت تصرّين. والآن حان الوقت لتجمعي شملك. انت لا تبكين على جيريمي الآن. بل على الحب الأول وما يعنيه. حسناً. إن الحب الأول ليس هو كل شيء.»

قالت بسخرية مريرة:

«أوه، انني اصدّقك. وموقنة أنك خبير. لا بد أن هذا الأمر يسري في العائلة. وحتى اذا كنت محقة، فانني على الأقل أدير شؤوني مع نساء يعرفن جلية الأمر. فأنا لا آخذ الحلوى من الأطفال. الطفل وحده كان يمكن أن تنطلي عليه أفعال غرّ مثل جيريمي.»

قالت في إعياء، وهي تمدّ يدها:

«ربما أستحق ذلك. وداعاً يا سيد لورد.»

فتجاهل يدها الممدودة وتساءل:

«كيف تنوين الانصراف من هنا؟ وأين تفكّرين في الذهاب؟»

انتفضت كاتريونا قائلة:

«هناك سيارات تاكسي، وفنادق على ما أظن.»

«هناك بالفعل. ولكن اذا كان لديك مال فقط. بينما بعض الفنادق المحترمة تودّ أيضاً أن يكون معك متاع.»

سكتت كاتريونا. بدا الأمر كلعبة الشطرنج مع خبير. كل حركة تحاولها كانت متوقعة مقدماً.

قال بهدوء:

«فلننتظر اذاً الى البديل. اذهبي الى أعلى وأصلحي مكياجك، ثم واجهي جيريمي على النحو الذي لا مناص منه.»

ثم أمسك بذقنها، فتراجعت بغير إرادة منها، وقال:

«نعم.. قولي له ما تودّين قوله، ما دامت ليست الحقيقة. لا تدعيه ينال هذا الرضى. ثم أصحبك بعد ذلك الى البيت وأنت محتفظة بكبريائك.»

ولم يخطر لكاتريونا إلاّ وهي جالسة في إحدى الغرف الفاخرة الأثاث تجدّد أحمر الشفاه، أن جيسون لورد لم يحدد أين البيت المقصود.

وكما تنبأ تماماً، خرجت من الغرفة لتجد جيريمي ينتظر خارجها. قال بوجه ممتقع، وهو يبلّل شفتيه بعصبية:

« ترينا!.. لم أستطع أن أصدق. ماذا بالله تفعلين هنا؟ ومن جاء بك؟»

دهشت كاتريونا بعد ذلك للطريقة التي قفزت بها الكذبة بسرعة الى شفتيها، قالت:

«أوه، أعلم أن ذلك كان خسّة من جانبي. ولكننا جيسون وأنا، فكّرنا كم ستكون دعابة اذا ظهرت أنا، كشبح من الماضي. وكان وجهك رائعاً عندما شاهدتني. ولم يكن هذا المشهد ليفوتني.»

كان الارتياح وعدم التصديق يتصارعان في ملامح وجهه، وتساءل:

«أنت فتاة جيسون؟»

قال جيسون وهو ينضمّ اليهما، ويبدو مسروراً بعض الشيء:

«هذا صحيح تماماً. ولا أعتقد أنك تدرك ما تركته يفلت من قبضتك هذه المرّة يا ابن أخي العزيز.»

ضحك جيريمي في اضطراب، وقال:

«أوه، ان ترينا ملاك. انني... انني لا ألومك على الاطلاق... الأمر فقط كان... مفاجأة.»

قالت كاتريونا بمرح:

«العالم كله مليء بالمفاجآت. أيها الحمل المسكين. كان يتعينّ عليّ أن أعرفك بأنني هنا، ولكن جيسون لم يدع لي وقتاً للتنفس منذ جئت الى لندن.»

وقف جيسون بجوارها، وألقى بذراعه بخفة على كتفيها. وشعرت بالحافز المألوف على الابتعاد، ولكنها اضطرت الى البقاء ساكنة بين ذراعيه، وقد وقعت في فخ ادعائها. ولحظت أنه يحمل دثارها على ذراعه. وتساءل جيريمي بصوت حاد من الفضول:

«هل تنويان الانصراف؟»

«أجل.»

وقبل أن تتحرك كاتريونا أو تحتج، انحنى جيسون وقبّلها ببطء وعمد، ثم أردف قائلاً وهو يبتسم لعينيها الغاضبتين:

«الوقت حان على ما أعتقد كي تذهب كل الفتيات الصغيرات الطيبات الى الفراش.»

احمرّ وجه جيريمي وهو يتطلع الى كاتريونا محاولاً أن يسبر أغوارها، وقال وهو يحاول إظهار اللامبالاة:

«هكذا الأمر اذاً؟ أتمنى لكما السعادة.»

وقال جيسون بدون أن يخفي لمحة السرور في صوته:

«هذا بالاضافة إلى أنّ سالي لن تغفر لي اذا أبقيت كاتريونا في الخارج لوقت متأخر».

نظر اليه جيريمي بسرعة قائلاً:

«سالي فنتون أتقيم تريبنا معها؟ لقد فهمت اذاً».

قال جيسون بخفة، وهو يتناول يد كاتريونا:

«ليس بعد. هيا يا حبي. حان وقت الذهاب».

ثم أضاف وهو يمضي بكاتريونا قائلاً للفتى الحائر المرتبك:

«قل لوالدتك أنني سأتصل بها تلفونياً».

وفي السيارة تحوّلت اليه غاضبة. قالت:

«كيف جرؤت على ذلك؟»

بدا هادئاً والسيارة تخرج الى الطريق:

«كيف جرؤت على ماذا؟»

«امساكك إياي بتلك الطريقة المهينة».

وازداد غضبها عندما ضحك، وألقى عليها نظرة سريعة قائلاً:

«انت تتملقين نفسك يا آنسة موير. من المؤكد أن هذا لم يكن أقوى عناق عرفته. لا بد أن أحادث جيريمي في ذلك».

همست بمرارة:

«اسكت! على الأقل مع جيريمي لم أشعر ابداً بأنني ملوثة».

بدا في وجهه شيء يروح ويغدو، ولكنه ظلّ على سروره.

«انني موقن أنك ستشعرين... في الوقت المناسب».

فكّرت في ردّ يخرسه الى الأبد، ولكن لم تسعفها قريحتها بشيء، فلزمت الصمت... أما هو فبدا غير مكترث تماماً، وأخذ يدندن ببعض الألحان، ويعلّق على أحوال الطريق، ثم فتح الراديو بعد أن استأذنها. وكانت محطة أجنبية تبعث منها موسيقى مريحة. وما لبثت أضواء الطريق والخطوط البيضاء أن اندمجت في غمامة ناعمة. وانزلق رأسها جانباً على كتف رفيقها، واستوى تنفسها وأصبح سلساً

ناعماً. ورأت نفسها تسبح على سحابة وقد انعدم وزنها وتحرّرت من كل شيء. ثم راحت في سبات عميق لم تفق منه إلا وهي تشعر أن يديه شديدتين على كتفيها وهو يهزها، اذا بها تشهق التماساً للتنفس وتهب من تحت الغطاء لتجد جيسون لورد واقفاً على رأسها يحمل طبقاً وفنجاناً قال ساخراً:

«انك لعتيقة في الصباح أيتها الصغيرة. هل تتناولين القهوة في الفراش أو خارجه؟»

هكذا استيقظت مندهشة وقد تحوّل لونها الى القرمزي من رأسها الى قدمها وقالت:

«أتسمح بأن تخبرني كيف جئت؟ ماذا أفعل هنا؟»

قال وهو يجلس على حافة الفراش، الأمر الذي أثار انزعاجها على الفور:

«جئتِ معي كما تعلمين. وأنت هنا كساكنة مؤقتة. وستغادرين هذا المكان متى اتصلت بسالي فنتون تلفونياً وأقنعتها بأخذك».

ارتعدت كاتريونا وقالت:

«كأنه ليس لي خيار في تنقلي هكذا مثل لفافة غير مرغوب فيها».

«لست أعرف اذا كان لك خيار. انني أعلم أن سالي تبحث عن فتاة تشاركها السكن. وسيكون هذا ترتيباً يخرجنا من ورطتنا. ولست سعيداً بفكرة انجرافك الى غابة المدينة بدون أن يرعاك أحد».

قالت كاتريونا في تحد:

«لست طفلة».

«أوه... كلا... إن أعمالك قد اتسمت بالنضج منذ نزلت من القطار».

قالت محتجة:

«ولكنني لا أعرف سالي هذه».

«ستعرفينها كما تعرفين الفتيات اللواتي يقتسمن الشقق هذه الأيام. فان بعضهن يعلن في الصحف والبعض الآخر يرد على الاعلانات. وسأقم الترتيب في حالتك

بدلاً من الصحيفة. وانني موقن أنك ستحبين سالي.»

قالت وهي تحاول تقليد سخريته:

«حسناً... هذا يجعل كل شيء على ما يرام، أليس كذلك؟»

«انت وحدك التي تجعلين الشيء مقبولاً. تقولين انه ليس لك مكان تعودين إليه في اسكوتلندا. لقد يحسن بك أن تمثلي الحكاية التي رويتها لجيريمي وتحاولي امتاع نفسك في لندن على سبيل التغيير. وستعاونك سالي في العثور على وظيفة ما. إنها ممثلة وهي لهذا قد اعتادت أن تجد لنفسها أعمالاً مؤقتة بين ارتباطاتها.»

حملقت كاتريونا في الرسم الذي يزيّن الغطاء، وقالت بصعوبة:

«فهمت، حسناً سأحاول ذلك وشكراً لك.»

قال مبتسماً:

«دعينا من المجاملات وهيّا، اشربي هذا وهو ساخناً.»

قبلت منه الفنجان في تواضع، وبدأت ترشف منه. وما كاد يصل الى الباب حتى أوقفته قائلة بعينين متسعتين:

«أوه سيد لورد، أغفر لي سؤالي، هل سالي هي إحدى رفيقاتك؟»

وتوقعت أن ينفجر غاضباً، ولكنه ارتكن الى الباب وهو يبتسم في تراخ، وقال:

«كلاّ، حقيقة وإن كان اهتمامك يطربني، فهل سؤالك لأنك تصوّرت أنك قد انضممت الى هذه الصفوف المختارة بنفسك؟»

ورغم الغطاء الذي يسترها، شعرت كاتريونا عندئذ وكأنها قد كشفت تحت نظرته المحترقة الوقحة. واستطرد متشدقاً بالكلام:

«اذا كان الأمر كذلك فدعيني أحذر رأسك الصغير من مثل هذه الأفكار الوهمية. كما قلت لك ليلة أمس، انني لا آخذ الحلوى من الأطفال، لا سيما عندما يكونون نياماً. وأتطلب من رفيقاتي على حد قولك، أن يبقين على الأقل مستيقظات، وأن يعطينني اهتمامهن الكامل. وقد أخطأت أنت في الناحيتين.»

وأغلق الباب خلفه، في الوقت الذي ارتطمت به الوسادة التي كانت كاتريونا قد قذفته بها بكل قوتها.

وجدت كاتريونا أنها أحبت سالي لدى رؤيتها لأول مرة. وكانت سالي صغيرة الحجم، حمراء الشعر، ذات قسمات دقيقة متحركة وابتسامة لعوب، وكانت عيناها ترقصان وهي تفتح الباب.

«جيسون يا ملاكي!»

وألقت بنفسها عليه في جزل، قائلة:

«لقد انقذت حياتي، لقد كنت يائسة منذ عاد الأحمق جيل الى برمنغهام.»

خلّص جيسون نفسه ولمعت عيناه وهو ينظر الى كاتريونا قائلاً:

«كوني حريصة يا سالي، والاّ أعطيت الآنسة موير فكرة خاطئة.»

قالت سالي وهي تأخذ بيديها:

«آنسة موير؟ بالطبع لا، إنّ الاسم هو كاتريونا أليس كذلك؟... أدخلي أرجوك، وقولي انك تحبين المكان وأنك ستبقين على الأقل لفترة، انني في حاجة الى ما ستدفعينه من إيجار... فضلاً عن الرفقة.»

قال جيسون وهو يجلس على طرف المائدة ويشعل سيكارة:

«لا تقولي لها ذلك، انها اسكتلندية وبالغة الحساسية بالنسبة الى النقود.»

قالت كاتريونا في استياء:

«هذا ليس صحيحاً.»

وصاحت سالي:

«أوه تجاهلي ذلك. فهو يقول أفظع الأشياء عن الجميع، ولكننا نسامحه لأنه شخص مهم!»

واستأذن جيسون لاحضار حاجيات كاتريونا من السيارة. وقالت سالي:

«سترتب الفراش الآخر، أخشى أن تكون غرفة النوم صغيرة، وآمل ألا تكون لديك ملابس كثيرة.»

بلعت كاتريونا ريقها، وقالت:

«لا أحمل معي تقريباً أية ملابس»

التفتت اليها سالي وتأملتها للحظة، ثم قالت:

«هذا عظيم... يمكن أن نذهب للتسوّق. لا تفزعي، فلن تحتاجي الى إنفاق كل مدخراتك لتعطي تأثيراً حسناً. ولن يكون من المستحسن في شيء الذهاب الى الوكالة التي أتردد عليها بملابس الجينز»

لم تشعر كاتريونا بأية إهانة لهذا الحديث، وتولت مساعدة سالي في إعداد الفراش، ثم ذهبت لمعاونة جيسون عندما جاء بحاجياتها، فوجدت بينها علبة ملابس فضية اللون عليها اسم المحل الذي ارتادته معه في اليوم السابق. قالت بسرعة:

«أعتقد أن هناك خطأ ما»

«ماذا نسيت؟»

«هذه العلبة، انها لا تخصني»

«لا تكوني حمقاء، هي لك بالطبع. أية فائدة لها بالنسبة اليّ؟ ولا تقولي إنّ في وسعي أن أهبها لاحدى رفيقاتي وإلاّ أقسم أن أجلدك على نحو ما تستحقين منذ قابلتك»

قالت بهدوء:

«لم أقل ذلك، ولكنني لا أستطيع قبول هذه الملابس. يجب أن تفهم أنني لا أستطيع تحمّل نفقاتها كما تعلم، لقد أخذتها في البداية لأنني كنت أظن...»

«كنت تظنين أن جيريمي سيدفع ثمنها عندما يصبح زوجك، ولكنني كما قلت لك، هذا كله على حساب العائلة، واذا أصررت على السداد بطريقة أخرى، فاني أؤكد أن في وسعنا أن نتوصل الى ترتيب ما»

«لا، أرجوك... أريد أن أشكرك على كل شيء، كما أرجو أن تجعل ذلك سهلاً بالنسبة اليّ»

«وليس لي كذلك أيضاً»

ثم اقترب منها، ووقف يتطلع اليها وهو يبتسم بفتور قائلاً:

«اشكريني اذاً»

فأخفضت عينيها الى رسم السجادة الباهت، وقالت:

«انني ممتنة كثيراً لك»

تنهّد في نفاد صبر قائلاً:

«لا تكوني جافة، انني موقن أن ستدريللا ما كانت تقول ذلك لذي اللحية الزرقاء، وداعاً يا كاتريونا، كوني على إتصال بي»

ثم مضى، وقالت سالي بعد أن أوصلته الى الباب:

«قد ترينه مرّة وترينه أخرى. لا بد أن تبذل مويرا جهداً في السعي وراءه اذا أرادت أن تربطه اليها مدى الحياة»

«مويرا؟»

«أنت لا تعرفينها بالطبع، أعني مويرا دين. إنها تضطلع في تمثيلية تلفزيونية أشارك فيها. وهي الآن توّاقة الى أن تجعلنا كلنا نعرف ذلك. وتضع عينها على جيسون، وتلتصق به مثل الغراء منذ بدء التصوير»

«وهل ينتج تمثيليات علاوة على عمله الآخر؟»

«كلا... كلا... لم يوضح لك؟ إنه يتردد على البروفات كثيراً لسبب أو لآخر. وأخشى أن تكون مويرا أحد هذه الأسباب»

«أظن أنها جذابة جداً»

«رائعة الحسن تماماً، حمراء الشعر مثلي. ولكن هذا هو الشيء الوحيد الذي يجمع بيننا. المفروض أننا أختان في التمثيلية، وهي فرصة رائعة بالنسبة اليّ ما دمت لا أدع مويرا تضطرني الى أن أترك التمثيلية أو أرتكب حماقة أخرى مثل هذه»

«هل هي بهذا السوء؟»

«انها تغلبنا على أمرنا في بعض الأحيان، ما عدا جيسون. فهو لا يدع أحداً.

خاصة اذا كان امرأة، يذهب معه الى هذا الدي. ولكنها يمكن أن تكون مزعجة حقاً. فهي من النوع الذي يطأ قدمك إذا ظنت أن هذا يجرح مشاعرك. والآن، لا بد أن أذهب الى البروفة في خلال ساعة فيحسن أن أريك مطبخنا الرائع.»

وقادتها الى ركن كشفت ستارته، فظهرت من خلفه أدوات مطبخ محشورة في تجويف بالجدار. وأبدت لها سرورها بحضورها، ونصحتها بأن تزور معالم المدينة وتستمتع بوقتها لعدة أيام قبل أن تبحث عن وظيفة.

«سأحاول الحصول على تصريح لك بزيارة مركز التلفزيون كذلك، وانني أؤكد أن هوغو المنتج لن يعارض.»

«لا أريد أن أكون مثار ازعاج.»

«ليس هذا ما قاله عنك جيسون بالتليفون هذا الصباح. لقد قال انك شوكة دائمة في جلده. شوكة اسكتلندية صغيرة.»

قالت كاتريونا في وضوح:

«وهو كذلك أكثر من قابلته غطرسة ومدعاة الى الاحتقار»

قالت سالي:

«ذلك لأنك لم تقابلي مويرا بعد»

٣ ـ دعوة إلى... التنظيف!

وانقضى باقي الأسبوع في انتقالات سريعة من مكان الى آخر لزيارة معالم المدينة. واشترت كاتريونا دليلاً، وقررت أن تزور كل الأماكن التي كانت حتى الآن مجرّد أسماء بالنسبة إليها. وقالت لها سالي وهي تشهق:

«البرج؟ انني لم أذهب اليه من قبل. عشت طوال حياتي في نطاق عشرين ميلاً فقط من لندن»

«يجب أن تخجلي اذاً من نفسك. انه مكان رائع يثير الخيال، كل هذه الأحجار العريقة في التاريخ. فكّري فقط في مقدار المعاناة التي جرت هناك عبر القرون، والدموع والدماء التي انسكبت هناك»

قالت سالي وهي تئن:

«هناك دماء ودموع في مركز التليفزيون تكفيني لفترة. استمرّي على ذلك يا عزيزتي، وسأحاول أن أكون معك عندما تزورين حديقة الحيوانات على الأقل. انني لا أستطيع أن أقاوم إغراء مشاهدة الدببة»

وتحت إشراف سالي، استطاعت كاتريونا أن تضيف إضافات متواضعة من الملابس الى خزانتها. كذلك علّمتها سالي كيف تجفّف شعرها وتعدّه بنفس التسريحة التي ظهرت بها في الحفل، وشجعتها على تجربة مواد التجميل أثناء النهار أيضاً.

ولم تتلقّ كلمة من جيسون لورد وان طلب منها الاتصال به. كانت عبارة فارغة مثل عبارته الدائمة يا قرة عيني. وفي الأيام القلائل الأولى، كانت تشعر

بالتوتر كلّما رنّ جرس التليفون، ولكنه كان دائماً من أجل سالي. ووجدت كاتريونا نفسها في ذات موقفها القديم الذي لم تعرف فيه هل هي مسرورة أم حزينة. كانت تقول لنفسها بقوّة أنه قد آن الأوان الذي يحسن فيه ألاّ ترى جيسون لورد الى الأبد، ولكنّها كانت تكتشف في الوقت نفسه أنه ليس مما يبهج أن يتجاهلها تماماً!

كذلك افتقدت موطنها من نواحٍ كثيرة. كان هواء لندن يبدو كثيفاً بعد نقاء توروليج ببحرها ونسماتها المحمّلة بالعبير. كذلك احزنتها وحشة المكان. جاءت من مجتمع روابطه وثيقة ويبدي فيه الآخرون اهتماماً رقيقاً ببعضهم البعض. وسرعان ما تخلّت كاتريونا عن تفقّد وجوه الناس الذين كانت تمرّ بهم في الشارع بحثاً عن التعرّف بالأصدقاء. وفوق هذا كله كان أكثر ما افتقدته غروب الشمس وألوان الجواهر المتألقة التي كانت تنبىء بالغسق فوق البحر الغربي. وكانت العمة جيسي قد قالت لها وهي طفلة أنه من الممكن التقاط الأحجار الكريمة من جداول التلال. وظلّت كاتريونا مقتنعة لفترة طويلة بأنّ هذه الجواهر هي في الحقيقة قطع انفصلت عن الشمس الغاربة وألقاها المد الهامس على الشاطىء.

وتذكّرت أنها قضت هي وجيريمي يوماً مطيراً في أحد الجداول يبحثان عن الأحجار الكريمة، ولكنهما لم يعثرا على شيء، الأمر الذي جعل الخاتم الذي اشتراه لها في نورث ويليام ثميناً على نحو مضاعف، ولا تزال تضعه في السلسلة التي ترتديها حول عنقها لأنها لم تفكّر كيف تتصرّف فيه. وكانت تدهمها أحياناً أثناء الليل، عندما تحول ضوضاء المرور بينها وبين النوم، موجة مفاجئة من الشقاء فتبكي على وسادتها وهي تخشى أن توقظ سالي. وترحّب بالدموع اذ تشعر بأنّ هذا الاشتياق المستمر الى جيريمي يثبت خطأ جيسون لورد في تلميحاته الساخرة الى الطبيعة الانتقالية للحب الأول. وان لم تتعمّق في أسباب احتياجها الى تبرير عواطفها على هذا النحو.

وأحياناً تساورها أحلام اليقظة، وهي تجول وحدها في صالات العروض والمتاحف المزدحمة، بأن جيريمي معها. وبينما كانت تخطر مرّة عبر باب في المتحف القومي، رأته يقف هناك، وظهره اليها، يتفحّص دليلاً. وعندما جرت اليه ومسّت ذراعه، التفت اليها وجه غريب وحدّق فيها، بينما أدركت خطأها وتراجعت محمرّة الوجه.

ولم تستطع التصديق بعد أنها خسرته تماماً. لم يكن المال يبدو بالغ الأهمية له ولها معاً في اسكوتلندا. واذا كان هذا هو كل ما يربطه الى هيلين، فمن الممكن اقناعه بأنه يرتكب خطأ محزناً. لقد كان جيسون محقاً في أمر واحد على الأقل. فلو لم تر جيريمي وهيلين معاً في الحفل.. لما صدّقت ذلك أبداً.

وأحياناً كانت تتساءل، بشعور المذنب، ماذا كان يمكن أن تقوله العمة جيسي لو أنها علمت أن ابنة أخيها تطارد رجلاً قد تعاهد علناً مع فتاة أخرى. كانت العمة جيسي ترى دائماً أن الخطبة رباط مثل الزواج نفسه. واعتقدت كاتريونا أن هذا هو السبب في أنها لا تزال تفكّر في جيريمي على أنه يخصّها ولا يخص هيلين. فالخاتم الذي ما زالت تحتفظ به فوق صدرها هو رمز لشيء كانت تظنّه سيبقى الى الأبد.

وقالت لنفسها إن الأمور ستتحسن متى حصلت على وظيفة، وأصبح أمامها ما تشغل به ذهنها. وكانت ستبدأ العمل قريباً. فقد اصطحبتها سالي الى الوكالة التي تلجأ اليها في فترات ما بين المواعيد التليفزيونية، وشكرت كاتريونا للأقدار تلك الليالي الطويلة التي علّمتها فيها العمة جيسي الكتابة على الآلة الكاتبة ودقائق مسك الدفاتر وهي لا تزال تلميذة. فقد أجروا لها اختباراً على الآلة الكاتبة في الوكالة، فتركت انطباعاً حسناً لدى الآنسة شو المشرفة، لسرعتها ودقتها. وتأملتها الآنسة شو ملياً وأومأت برأسها كأنها رضيت عن شيء.

«أي أنواع الوظائف تطلبين يا آنسة موير، وظيفة مؤقتة تبدأين بها، أم تفضلين

شيئاً دائماً!»

ثم نقّبت في ملف البطاقات، وقالت:

«هنا شيء، أشعر بأنه يوافقك. مؤسسة هندرسون ترست تبحث عن مساعد مكتبي عام».

«أهي منظمة كبيرة؟»

«بالعكس يا عزيزتي. لقد تأسّست مؤسسة هندرسون ترست منذ أعوام قليلة فقط لتقديم الخدمات كبيت إقامة لمن لا مأوى لهم. واذا قبلت الوظيفة، فستعملين في البيت نفسه مع المدير، السيد ملتر».

«ربما يريد أحداً بمؤهلات عالية؟»

«لن تجديه بالغ التدقيق. فمعظم الفتيات يرغبن اليوم فيما يبدو بوظائف ساحرة، تكييف هواء، وايصالات غداء، وأخشى ألاّ تكون وظائف المؤسسة ضمن هذا النوع. كذلك فإنّ الاجر ليس كبيراً، ولكنني أشعر بأنك ستجدينها مناسبة».

وأعطتها بطاقة خضراء، لتقدّمها الى المؤسسة في التاسعة من صباح الاثنين التالي، وتمنّت لها حظاً سعيداً.

وظنّت كاتريونا أن سالي نسيت عرضها باصطحابها لزيارة مركز التليفزيون، ولكنها كانت مخطئة. فقد أثارت سالي الموضوع وهما تغسلان الأطباق في إحدى الأمسيات.

«لدينا بروفة كاملة غداً بكل المناظر والأزياء قبل التسجيل. وقد تحدّثت الى هوغو فقال إن في وسعك الحضور ما دمت ستلتزمين الصمت، وستبدأ البروفة في الواحدة والنصف، وبهذا يمكننا تفقّد المكان قبل ذلك. ثم اننا سنتناول الغداء هناك بدعوة خاصة».

«من؟»

«يمكنك أن تخمّني! انه جيسون بالطبع. ومن يكون غيره؟»

ذهلت كاتريونا، وأدركت أن وجهها قد احمرّ وأن سالي تنظر اليها بدهشة.

قالت بصوت خفيض:

«هل نحن مضطرتان لذلك؟»

«نعم، أعني لا. لست أرى كيف يمكن أن نخرج من هذا المأزق. آسفة يا عزيزتي، كنت أظن أنكما صديقان».

«ليست هذه هي الكلمة التي أستخدمتها».

«أوه انني لم أحزر الأمر، ولكنه جاء بك الى هنا ولهذا افترضت...»

«أستطيع أن أخمّن ذلك. ولكن الأمر لم يكن شيئاً من هذا القبيل. أقسم لك يا سالي أنه لم يكن كذلك».

«حسناً، سأصدّقك، ولكنني لا أرى حقيقة كيف يمكننا التهرّب من فرصة الغداء. انني ممثلة مكافحة... وهو الذي...»

ثم توقفت وقد احمرّ وجهها، ومضت تقول بسرعة:

«وهو منتج مهم».

وتساءلت كاتريونا عما كانت سالي تنوي قوله، ولكنها قررت ألاّ تستطرد في هذه النقطة، فتنهّدت قائلة:

«لا تقلقي يا سالي، أستطيع أن أتحمّل غداء واحداً، ما دمت لن أضطرّ الى البقاء وحدي معه».

حدّقت فيها سالي فاغرة الفم، وقالت:

«لا بد أنك تنفردين وحدك بهذا الشعور. فليس ثمة فتاة أخرى أعرفها لا تضحّي بكل شيء، لتكون وحدها مع جيسون لورد».

«لعل هذا هو السبب اذاً».

وكانت لا تزال متوترة في اليوم التالي، وهي تقطع مع سالي المسافة القصيرة من محطة قطار الأنفاق الى المجمع الضخم من الزجاج والأسمنت الذي يكوّن مقر التليفزيون. وفي الوقت نفسه كانت تدرك أنها تبدو في أفضل حال في ثوب قرمزي من قطعتين، تنورة ذات ثنيات وجاكيت بأكمام قصيرة فوق قميص

حريري أبيض. ولو رآها جيسون لورد لوجدها مختلفة تماماً عن الطفلة الرثة التي جاءت على غير توقع الى عتبة بابه، أو التي تنكرت في زي فاخر مستعار بناء على أمره. وأحست بثقة أقل عندما حان وقت مرورها أمام اثنين من رجال الأمن على الباب، ولكنهما أشارا إليها والى سالي بالدخول بعد نظرة عابرة الى تصريحها هناك. وشعرت كاتريونا بإثارة اهتمامها الجدي. كانت التمثيليات التي شاهدتها في الأسبوع الماضي من أمتع ما رأته في التلفزيون، وهي تتطلع الآن الى رؤية سالي في دورها الجديد. وكانت قد قرأت السيناريو وأخذت تردد لسالي مقتطفات من سطوره، فالقصة بالنسبة إليها مألوفة. قالت لها سالي إن الرواية تتعرض لتوتر انفعالي تعانيه أسرة، عندما تعود إحدى شقيقتين الى موطنها لتحضر زفاف أختها الصغرى، فتفاجأ بأن العريس هو حبيب قديم لها. وسألتها كاتريونا عن مؤلفها بعد أن وجدتها متحمسة له فقالت أنه شخص مجهول يدعى جون ليزل ويكتب لأول مرة. ووعدت بتقديمه لها اذا رأته.

أبدت كاتريونا اهتماماً بكل ما رأته، عندما غادرتا المصعد. فهناك الى جانب استديو كبير، تعدّ فيه المناظر لرواية سالي توجد غرف للماكياج وقسم للملابس يعج بالناس. وقالت لها سالي:

«انهم يسمحون لنا عادة بارتداء ملابس من اختيارنا. أما الرداء الذي يزودني به القسم هذه المرة فهو ثوب الزفاف».

وقدمتها سالي الى رجل طويل أصلع يرتدي سويتر بحرياً. ولدهشتها وجدت أنه المخرج هوغو ويزموند. وبرغم مظهره، كانت له ابتسامة ساحرة وصوت عميق رائع. ولكن سالي حذرتها:

«لا تنخدعي. انه يبدو رقيقاً جداً، ولكنه يخور كالثور عندما يغضب».

ومرت الساعة التي تلت ذلك في تفقد أنحاء المركز. وقدمتها سالي الى أناس كثيرين نسيت معظم أسمائهم ووجوههم. وخاب أملها عندما رأت مذيعاً وسيماً للأخبار كانت ترقبه على شاشة التلفزيون كل مساء.

«انه أصغر حجماً بكثير مما تصورت، كما أنه مختلف».

«ان ما ترينه عبر الشاشة عالم غير حقيقي. فنحن نقضي نصف الوقت في صنع الوهم. وبالمناسبة ها هي مويرا قادمة».

أرادت كاتريونا أن تلتفت وتتطلع، ولكنها سيطرت على نفسها.

وسرت لذلك عندما تردد من جانبها صوت أجش:

«كنت أظن أن هوغو فرض حظراً على الزوار يا آنسة فنتون».

كانت مويرا دين فتاة طويلة، يوشك جسمها أن يشي بالترف الحسي، وترتدي بذلة تناسبها من المخمل الأسود. تفحصت عيناها البنفسجيتان كاتريونا بدقة، ثم أغفلتها باعتبارها نكرة. وقالت سالي بنعومة:

«لا أظن أنه قصد حظراً تاماً يا آنسة دين. لقد أصيب ببعض الضيق لوجود الزوار في كل بروفة».

احمرت وجنتا مويرا قليلاً وقالت:

«حسناً، يسرني أن يتعقل قليلاً. لأنني سأقابل إحدى بنات عمومتي على الغداء، وهي تريد مشاهدة البروفة مثل صديقتك الصغيرة».

وبادرت سالي الى تقديم كل منهما للأخرى، وقالت مويرا:

«كاتريونا موير... أعتقد أنني سمعت هذا الاسم في مكان ما من قبل».

قالت كاتريونا بثبات:

«لا بد أنك تفكرين في شخص آخر يا آنسة دين، فقد وصلت الى لندن في الأسبوع الثالث فقط».

قالت مويرا وهي تهز كتفيها:

«ومع ذلك فانه سيرد على ذهني في النهاية».

واستأذنت منها سالي للانصراف الى الغداء. وسألتها كاتريونا بعد أن ابتعدتا اذا كان هوغو لا يحب الزوار فعلاً. فأجابت سالي:

«انه لا يهتم كثيراً بزوار مويرا. فهم لا يلتزمون الصمت خلال تصوير المشاهد،

ويفعلون أشياء لا يصدقها العقل كأن يطلبون من جان مساعد الانتاج إحضار القهوة لهم. ولقد ثار هوغو وقال انه لم يعد يقدّم تسلية مجانية لمشاهدين فاغري الأفواه. ولكنه كان رقيقاً عندما سألته إن كان في وسعك الحضور. وشعرت كاتريونا بارتياح، وأدركت في الوقت نفسه أن هذا التنازل لم يسرّ موبرا، وتمنت ألا تصادفها مرة أخرى خلال بروفة بعد الظهر.

وكان كانتين الاستديو يقع في الطابق العلوي. كما أعدّ قسم للكافتيريا منفصل عن المطعم. قادتها سالي بلا تردد، حيث خفّت اليها الساقية التي دلّتها الى مائدة السيد لورد. وكانت قرب النافذة، تطلّ على مشهد يبهر الأنفاس. وأخذت كاتريونا تحاول تبيّن المعالم التي عرفتها ورؤية شريط نهر التيمز الأزرق الذي كان يبدو متعرّجاً على البعد.

قالت لسالي، وهي تتفحص قائمة الطعام بدورها:

«أوه، لم يسبق لي أن استمتعت بوقتي على هذا النحو يا سالي. وليس هناك من نقطة سوداء فيه إلاّ اضطراري لأن أكون برفقة هذا الرجل لورد».

«لا تدعي ذلك يفسد يومك».

جاءت هذه العبارة المقتضبة من صوت ممازح تعرفه. وألقى جيسون لورد بنفسه في المقعد الثالث الى المائدة، وقال:

«لم يسبق لك يا آنسة موبر أن جعلت حسن السلوك يقف حائلاً من قبل. فلماذا تهتمين الآن؟»

شعرت كاتريونا بالحمرة تكسو حتى جذور شعرها، فقد ضبطت متلبّسة بوقاحة صبيانية، وتلقّت عليها الجزاء.

«لم أكن أعرف انك هنا...»

قال وهو يناولها قائمة طعام:

«مؤكد. ماذا تشتهين يا آنسة موبر، أم هل تفضلين عضّة أخرى لليد التي تنوي إطعامك؟»

قالت سالي تعاتبه:

«كفّ عن إغاظتها يا جيسون. انك تعرف ماذا يقولون عن مسترقي السمع في أي حال».

«أوه، لقد اعتدت ألاّ أسمع شيئاً طيباً عن نفسي. أليس كذلك يا ستيريللا؟»

قال ذلك وهو يبتسم لها، فحدقت فيه بكراهية الذكريات التي أثارها هذا الاسم المستعار في ذهنها. وقالت سالي وهي تضع قائمة الطعام:

«اختر لنا أنت يا جيسون. وتذكّر أن ثوب الزفاف يحكّم عليّ حتى بدون غداء».

«حسناً. فلنبدأ بكوكتيل القريدس، ثم قطعة من اللحم وسلطة خضراء».

وأرادت كاتريونا أن ترفض الغداء، ولكنها كانت جائعة وحريصة على ألاّ تغضب سالي، فوافقت بغمغمة ما، وظلّت تحدق في الرسم الظاهر في القماش الدمشقي حتى وصل الصحن الأول.

وتجاهل جيسون صمتها فيما يبدو، والتفت الى سالي متحدثاً معها في موضوعات تتعلّق بعملها في التليفزيون. وبدأت كاتريونا بالرغم منها ترقبه خفية وهم يتناولون الطعام. كان يرتدي قميصاً أزرق من القطن، أكمامه مرفوعة بغير حرص كاشفة عن ساعدين سمراوين. لم يبد متألّقاً في ملبسه على غير ما كان عليه سائر القوم في المطعم، ووجدت نفسها تعترف بانه أكثر منهم جميعاً جاذبية. وبينما كانت سالي تنحني لتتناول منديلاً من حقيبتها، التفت جيسون الى كاتريونا والتقت عيناها في لحظة تحد، وأحسّت برعدة تسري في ظهرها. وبرغم أن الظروف اضطرتها الى موقف وذي غير متوقّع معه، فقد أدركت أنه لا يزال مجهولاً لها. ولم تكن تصدّق بعد أن هذا الفم الثابت، رقيق الشفتين، قد مس بشرتها ولو على سبيل التظاهر. هناك شعور بالعداء التام بينهما. وكان كل منهما قد كره الآخر من أول نظرة. وإن اضطرت الى أن تكون ممتنة له من بعض الوجوه. ولكنها قالت لنفسها إن هذا لا يجعلها تعجب به بأية حال. وقد تساءل بطريقة عرضية:

«ماذا كنت تفعلين بنفسك؟»

فاحمرّ وجهها بدون أن تجد رغبة في أن تخبره بزياراتها لمعالم المدينة، وتولّت عنها سالي الرد:

«إن كاتريونا هي السائحة المثالية. ولا أدري كم من الأحذية اهترأت وهي تتسكع من النصب التذكاري لنيلسون الى قصر بكينغهام، وبالعكس. ولكنها ستبدأ العمل يوم الاثنين، وبهذا لن تجد فسحة من الوقت إلاّ في عطلات الاسبوع»

قال جيسون ساخراً:

«انك لمحظوظة يا آنسة موير بزيارة لندن لأول مرة. نحن نميل الى نسيان كم هي مثيرة. هل انت مغرمة بالاثارة؟»

وبدت في عينيه الرماديتين نظرة ولمحة مستترة، وهو يحدّق في عينيها، فقالت بهدوء:

«اذا كان من النوع السليم»

دفع صحنه الفارغ، وتفرّس في وجهها قائلاً:

«آه، ولكن ما هو النوع السليم، ألا يقضي ذلك بأن تميزي النوع «الخاطئ» قبل أن تتركي الفارق؟»

وأخذ يتأملها من جديد، فأحسّت مرّة أخرى بالرغبة الغريبة في أن تحمي نفسها بيديها. وتدخلت سالي قائلة في نفاد صبر:

«آمل أن تكونا على معرفة بما تقولان، لأنني لا أدرك شيئاً منه. أسأل الساقية يا جيسون أن تأتي بمائدة الحلوى المتحركة. سأتناول كعكة البيض المخفوق، والى الجحيم بثوب الزفاف»

شعرت كاتريونا بالامتنان لخلاصها من تركيز الاهتمام عليها من جانب جيسون، وقررت في نفسها أن تبتعد عن طريقه من الآن فصاعداً. فقد وجدته باعثاً على الازعاج على نحو لم تفهمه. وكانت على وشك الفراغ من قطعة كعك

التوت، ذات الكريمة المخفوقة، عندما هتفت مويرا دين:

«حبيبي! أنت هنا اذاً»

وانحنت وقبّلت خده قائلة:

«انك لشرير حقاً، لقد تركت لك كل أنواع الرسائل العاجلة عن غداء اليوم في مكتب الاستقبال»

قبّل جيسون يدها واطلقت مويرا ضحكة صغيرة عذبة، وقالت:

«بحق انك ستصدم هيلين المسكينة»

وحتى الآن لم تكن كاتريونا قد أحسّت بوجود رفيقة مويرا. فقد كانت مستغرقة في محاولة تبين مشاعرها المختلطة لدى ظهور مويرا وسلوك جيسون إزاءها وهي تنحني عليه بودّ بالغ. ولم يكن من العسير تخمين علاقتهما، ولكنها الآن عرفت الفتاة ذات الشعر الاشقر التي تقدّمها الى سالي. كانت خطيبة جيري التي لمحتها في الحفل. وتفجر الذعر لحظة في داخلها، ولكنها أحسّت بعيني جيسون عليها، وفيهما تحذير قاس. والتفتت مويرا اليها وهي تقدّمها الى هيلين:

«وهذه الآنسة كاتريونا موير، صديقة عظيمة لأصهارك المقبلين، أو لبعضهم على الأقل»

وضعت كاتريونا فنجان القهوة بينما يداخلها شعور بالغثيان. وأدركت أن هيلين لا بد أن تكون ابنة عم مويرا التي تحدثت عنها من قبل. وبدا من النظرة الماكرة التي تبادلتاها أن جيري كان أكثر من صريح مع خطيبته عن علاقاته قبل الخطبة.

قال جيسون وهو ينهض ويصافح هيلين، التي كانت تسترق النظر اليه بخجل من وراء رموش ثقيلة الطلاء:

«إنه عالم صغير. انني أسف لأننا لم نتقابل في تلك الليلة. ولكن كانت هناك جموع كثيرة تحيط بك مما جعلني أدّخر هذا الشرف لمناسبة أكثر خصوصية»

وبدا من ملامح وجهه أنه لا يعتبر المناسبة الحالية خاصة بشكل كاف أيضاً.

فقالت هيلين وهي تبتسم له:

«لقد حدثني جيريمي عن عمه الشرير. وقد فهمت الآن ما كان يعنيه».

ضحك جيسون، وشعرت كاتريونا فجأة برغبة جامحة للهرب، فقالت:

«أعتقد أنه يحسن بنا الانصراف».

وبينا كانت تمدّ يدها لتلتقط حقيبتها، اشتبك كمّها بفنجان قهوتها، وكان ممتلئاً الى نصفه فانسكبت محتوياته على القماش الأبيض. وشعرت كاتريونا بحرارة مفاجئة من فرط الحرج، ودفعت كرسيها الى الخلف ونهضت، بينا قالت موبرا بخفة:

«أوه، يا لها من لخبطة!»

وقالت سالي في تعاطف:

«هل لطخت ملابسك؟»

فهزّت كاتريونا رأسها وهي تحاول استعادة ثباتها، وقال جيسون ساخراً:

«يا لها من ضجة حول حادثة تافهة. اهربي يا آنسة موبرا اذا رغبت في ذلك ولكنهم لا يشنقون الناس لسكبهم القهوة!»

وبدا مسروراً لجعلها تشعر بأنها خرقاء. وعادت اليه وهي غاضبة وعيناها تومضان، ولكنه ضحك بيسر قبل أن تتحدث، وأخذ بذراعها.

«تعالي يا قرة عيني. سأريك المكتب الذي أجد فيه إلهامي. ان سالي ستذهب لتضع ماكياجها الآن، وستكونين عقبة في طريقها. أليس كذلك يا سالي؟ وداعاً يا هيلين. انني أتطلع الى اليوم الذي أجدك فيه زوجة لابن أخي. سأراك فيما بعد يا موبرا».

وانصرف بطريقة عرضية، وأصابعه محكمة كالرباط على رسغ كاتريونا وغمغم قائلاً لها:

«لا تثيري ضجة هنا. غرفتي عازلة للصوت، وفي وسعك هناك أن تطلقي العنان

لمشاعرك».

وعندما خرجا من المصعد قال لها:

«مكتبي هناك الى اليسار».

فهتفت منفعلة:

«فليبق هناك. سأبحث عن سالي».

فقال بحسم وهو يمسك بيدها من جديد:

«ليس الآن. انها تستعد، وتسامح هوغو مع المشاهدين محدود. سأصحبك الى الأستوديو قبل أن تبدأ البروفة، والآن أدخلي».

ودفع الباب، فتطلعت اليه كاتريونا للحظة وهي عاجزة تماماً، ثم دخلت الغرفة. لم تكن كبيرة. وكان أثاثها الرئيسي مكتباً يغصّ بالأوراق. وهناك آلة كاتبة صغيرة وبعض التليفونات وجهاز للاتصال الداخلي، ورف مليء بالكتب، وخزانتان لحفظ الأوراق، ومعطف جلدي ملقى على المقعد الوحيد القائم.

التقط جيسون المعطف، وطوّح به في ركن، وقال:

«اجلسي».

ثم أدار جهاز الاتصال الداخلي:

«أحضري فنجانين من القهوة يا ديان».

قالت كاتريونا محتجة على الفور:

«لا أريد شيئاً لي».

«كفي عن الجدل. لقد سكبت معظم قهوتك، وأنت بحاجة الى شيء ينشطك، فانك تبدين كالشبح. ويبدو أن قدري هو أن أكون موجوداً بقربك في لحظات الأزمات. كنت آمل أن أقابلك في جو أهدأ اليوم».

حدقت فيه غير مصدقة:

«كنت تأمل في مقابلتي؟»

تقدم، وجلس على حافة المكتب قائلاً:

«ولم لا؟ إنك جذابة جداً يا آنسة موير، وأنا موقن بأنك تعرفين ذلك، وموقن كذلك بأنك تتمتعين بمفاتن خفية، ولو أنك سمحت لأحد بأن يقترب منك، لاكتشفها»

«أرى أنك اقتربت مرّة بما فيه الكفاية»

أطفأ سيكارته في منفضة ضخمة من العقيق اليماني، وقال:

«أوه، لانني قبلتك مرّة وخلعت عنك رداءك، ولم يكن الاثنان في وقت واحد»

احمرّ وجهها وهي تحدّق فيه وقالت:

«أجد انك لا تحسّ بالخجل وأنت تذكر ذلك»

«لم يكن الخجل أبداً شعوراً بارزاً عندي»

وفتح الباب، ودخلت فتاة طويلة سمراء تضع على عينيها نظارة متدرجة اللون، ومرّت لحظات صمت تناولت فيها كاتريونا السكر، ورفضت بهزّة من رأسها البسكويت المرفق بالقهوة. خرجت ديان بعد كلمة شكر من جيسون، الذي ابتدر كاتريونا قائلاً:

«انني معجب بردائك»

كانت على وشك أن تخبره بأنها لم تفكّر فيه عندما ارتدته ولكنها أحسّت بأنها ستكذب، فامتنعت عن الرد، بينما ازداد لونها حمرة. قال بنعومة:

«إنّ وجهك يحمرّ خجلاً على نحو مبهج، وأعترف بأنني نسيت أن في وسع الفتيات في عمرك أن يخجلن. قلت لي كم عمرك؟»

قالت باقتضاب وجفاء:

«لم أقل شيئاً، ولكنني في العشرين»

قال وهو يحتسي القهوة:

«انك تبدين أصغر سناً من ذلك، خاصة عندما تعبسين»

«انني لا أعبس»

قالت ذلك باستياء، ثم توقفت عندما أدركت أنه من السخف التمادي في هذا

الجدل.

«لا بأس. سندعو الى هدنة. لا أريد أن أكون سبباً لمشهد في يوم خروجك. هل تستمتعين بيومك، وهل شاهدت كل ما أردت مشاهدته؟»

«انني اتطلع إلى مشاهدة التمثيلية فيما بعد. فهي قصة جيدة، وأعتقد أن سالي ستكون عظيمة»

«أعتقد كذلك أيضاً، هل الأمور بينك وبين سالي على ما يرام؟»

«أليس هذا واضحاً؟»

«النتائج الواضحة ليست هي دائماً النتائج الصحيحة»

«نعم، انني أحبها كثيراً»

«وهذا يسرّني. فبينكما أمور كثيرة مشتركة، أم أنكما لم تبوحا بالأسرار الى هذا الحد؟»

تطلّعت اليه كاتريونا بعينين متسعتين، فأومأ برأسه قائلاً:

«هذا صحيح يا عزيزتي جيريمي بالطبع! وان كانت سالي قد استطاعت الخروج من تلك العلاقة بقلب لم يعرف الانكسار»

قالت كاتريونا فاقدة الحس:

«لم يطرأ ذلك على بالي»

«وهل يغيّر هذا من الأمر شيئاً؟ انه لم يغيّر شيئاً بالنسبة إلى سالي. انها بارعة، واستطاعت بعد فترة وجيزة أن تستكشف أمر جيريمي. وظننت أنك لو تحدثت إليها، لربما انتهى بك الأمر الى الاقلال من الاشفاق على نفسك»

«انني لم أبحث هذا الموضوع مع أحد. فليس هو بالأمر الذي أتوق الى معرفته»

«كما تشائين. ولكن هذا لم يكن في الحقيقة ما جئت بك الى هنا للحديث عنه. هل تذكرين قولك انك تنوين أن تسددي ما عليك من دين لي ثمناً للثوب وسائر الأشياء؟»

تطلّعت اليه بشيء من التخوّف، وقالت:

«نعم، ولكنني لن أبدأ العمل قبل يوم الاثنين و...»

رفع يده يسكتها، ثم قال:

«لا أعني النقود»

واتسعت ابتسامته عندما لحظ نظرة الانزعاج فوراً في عينيها، وتصلّب جسمها الرقيق بفعل الغريزة، واستطرد قائلاً:

«... ولا أعني كذلك ما تظنين فيما يبدو. إن مطارحة الغرام يمكن أن تكون هدية، ولكنها أبداً لن تكون سداداً لدين. وأخشى أنّ ما يدور في ذهني أكثر واقعية. ما مقدار براعتك في أعمال البيت؟»

ذهلت كاتربونا للحظة، وتوقّف جيسون ينتظر الاجابة، ثم تنهد قائلاً في نفاد صبر:

«انني أسأل لأن في وسعك مساعدتي على الخروج من مأزق حقيقي اذا شئت. لقد انزلقت السيدة بيرش المسكينة وسقطت في البيت والتوى رسغها، وستتوقّف عن العمل لبعض الوقت، والشقة بغيرها فوضى. ولا أستطيع الاستغناء عن سيدة في البيت».

قالت بصوت مرتعش قليلاً:

«هل أستطيع أن أعرف بصراحة؟ هل تريدني أن أحضر وأنظّف شقتك كل يوم».

«أوه، ليس كل يوم، ولكن اذا كان في وسعك الاطلال على المسكن الى أن أجري ترتيبات أخرى، فسأكون شاكراً. ولكن اذا كنت تعتقدين أن هذا الاقتراح إهانة».

«أوه، كلاّ سيكون من دواعي سروري أن أنفّذه. لقد اعتدت على أعمال البيت، ولن يكون فيها ما يضايقني».

«هذه صفقة اذاً. اعتبري كل الديون مسددة بالكامل».

وانزلق من على المكتب، وبسط لها يده وعيناه تكادان ترغمانها على ردّ هذه اللفتة. فنهضت بدورها ومسّت أصابعه في ارتباك وقالت ووجهها مغضن قليلاً:

«لا يبدو الأمر مستقيماً مع ذلك. فالثوب قد تكلّف كثيراً. وعملي يعتبر قليلاً لا يفي بالرد».

«قليل؟ لا أستطيع أن أفكّر في فتاة واحدة ممن أعرف يمكن أن أطلب منها ذلك أو أثق بها في أدائه. وليس هناك ما يضطرك الى القلق بشأن تحملك لصحبتي يومين متتاليين فسأبقى في الأستديو طوال اليوم. وفي وسعك أن تعملي على راحتك، وتأكلي متى شئت. ففي الثلاجة أكوام من الطعام خزّنتها السيدة بيرش قبل الحادث».

شكرته كاتربونا وهي تشعر بالحمق. فللحظة ما صوّر لها خيالها جيسون وهو في غرفة مكتبه بالبيت، بينما هي تتولىّ التنظيف وإعداد الوجبات وصنع القهوة. وكانت هذه الصورة أكثر وداً وقرباً من الليلة التي قضتها في الشقة.

«سأكون قد ذهبت في الثامنة والنصف. هل تستطيعين أن ترتبي أمرك على ذلك، أم هل أترك المفتاح مع سائر السكان؟»

«سأكون هناك قبل أن تنصرف. سأجد كل شيء في المطبخ؟»

«نعم، سأريك المكان قبل أن أنصرف. أعرف مكان كل شيء برغم أني لا أحسن استخدامه. هناك كذلك على ما أعتقد قفازات من المطاط».

قالت بخفة:

«أوه، انني لا أستخدم هذه الأشياء السخيفة».

«لا تستخدميها!»

وأمسك بيدها، وأخذ يتفحّص كفّها المستديرة وأصابعها الدقيقة:

«أهذه يد تعمل بالفعل!»

ثم تتبّع بطرف إصبعه خطاً في الكف قائلاً:

«هذا خط القلب يا كاتربونا. انه يبدو ثابتاً بشكل مدهش. ولا أرى تجاربي أثراً فيه!»

أرادت أن تجذب يدها، وتتراجع، ولكنها ظلّت واقفة تحدق في الأرض بينما كان

الصمت بينهما ان يصبح مسموعاً.

قال بصوت خفيض:

« كاتريونا، هل أبلغهم في الاستوديو أن يذهبوا الى الجحيم، وأبقى في المنزل غداً؟»

«أنسيت؟ ان مطارحة الغرام ليست هي السبيل لسداد الدين؟»

قذفت بالكلمات في وجهه قذفاً، وصدمها سلوكها معه في الوقت نفسه. فهل نسيت من يكون؟ وهل نسيت قسوته التامة في الحصول على ما يريد؟ وقالت لنفسها إنها لا تزال تحب جيريمي، فلماذا هذا الشوق الى الشعور المضطرم بجيسون.

أطلق يدها فجأة، فتراجعت من نظرة الغضب في عينيه.

«كنت أظن أننا اتفقنا على أن الدين قد سدد. لا تقلقي يا كاتريونا. لن أطلب منك الدفع مرة أخرى».

وجاء صوت ديان عبر جهاز الاتصال الداخلي يبلغه أن الأستوديو قد إتصل به. فالتفت الى كاتريونا قائلاً:

«هذه إشارة من هرغو بأن كل شيء معدّ. نستطيع أن نصعد الآن».

«هل ستشاهد البروفة أيضاً؟»

«نعم، إن لي وجهاً للاهتمام بالتمثيلية كما تعرفين».

ظنته كاتريونا يقصد مويرا دين. فقد أوضحت الممثلة في المطعم أن بينهما ما هو أكثر من صداقة. وقالت كاتريونا لنفسها في مرارة انها لن تضيف نفسها الى قائمة غزواته، مهما تعلّم من الحيل التي اكتسبها مع سائر النساء.

وقال في نفاد صبر، ويده على مقبض الباب:

«تعالي اذاً. أليس هذا ما جئت من أجله؟»

ولكنها عندما تبعته الى المصعد، وجدت نفسها تتساءل: هل هذا صحيح؟ ولدهشتها، استمتعت تماماً بالبروفة. وبرغم كراهيتها الغريزية لمويرا فقد

سلّمت بأنها ممثلة ممتازة. كذلك كان أداء سالي طيباً جداً. وجاءها المخرج يسألها بعد فترة توقف عما اذا كانت قد استمتعت بما شاهدت، فأومأت له برأسها.

«اذا أردت الخروج لتناول القهوة، فهذه فرصتك. ذهبت سالي لاصلاح ثوبها، فهل تستطيعين أن تدبري أمرك وحدك؟»

أجابت كاتريونا بالايجاب. وللحظة خشيت أن يصحبها جيسون وقد فتح لها الباب لتمرّ، ولكنه ذهب في الاتجاه الآخر بدون كلمة.

ووجدت الكافتيريا نصف ممتلئة. فأخذت قهوتها وبعض الكاتو الى إحدى الموائد وبينما كانت تتصفح الوجوه، جاءها صوت مويرا:

«هل يمكن أن نجلس معك؟»

كان معها شاب ذو شعر بني، أطول من شعر جيسون، وله شارب على الطراز الفيكتوري. قالت مويرا تقدمه:

«هذا روجر هنت، كاتب عمود في صحيفة ايفنينغ غلوب».

لم يكن هذا يعني كاتريونا كثيراً، ولكنها ابتسمت في أدب وصافحته. وقد أربكتها قليلاً نظرة الاعجاب السافرة التي اطلقها الشاب ولكن بعد قليل شعرت بالاسترخاء. قال:

«لهجتك ليست اسكتلندية؟»

«كانت أمي انكليزية، وقضى أبي معظم وقته في جنوب الحدود».

«ومع ذلك فان صوتك يبعث على البهجة بتلك النبرة الجذلة فيه».

لم تكن كاتريونا قد اعتادت مثل هذه الملاحظات من غريب، فشربت القهوة لتخفي حرجها المتزايد.

«منذ متى وأنت في لندن يا كاتريونا؟ ... هل لي أن أناديك هكذا؟»

«يمكنك. منذ مدة قصيرة وأنا في لندن».

قالت ذلك وهي تتلعثم قليلاً تحت وطأة عيني مويرا المحدقتين. وفكرت في أن تلعثمها سببه هو عيب الأكاذيب. أخذت تفكر فيما قالته كذباً وانعكس عليها

الآن، ماذا قالت لجيريمي، اعطته انطباعاً بأنها وجيسون متعارفان منذ فترة. فهاذا قال بدوره لهيلين، لتنقله الى مويرا. قالت لنفسها ورأسها يدور إنّ الأمر يتصاعد الى كارثة.

«حسناً، كنت فتاة مشغولة بالنسبة إلى وافدة جديدة. وان فروة رأس جيسون لورد ليست سيئة ليسير عليها فأر من فئران الريف!»

حدّقت فيه كاتريونا باستياء متسائلة:

«فروة رأسي!»

«كفّي عن هذا يا عزيزتي، انك لن تحدثيني بالمنطق الروتيني للصداقة الطيبة بينك وبين جيسون!»

ازدادت حيرة كاتريونا وعجبها. فالصداقة الطيبة ليست هي بالعبارة التي تصف بها علاقتها مع جيسون. قالت:

«لا أدري ما سمعت، ولكنني استطيع أن أؤكد لك...»

«أوه، لقد سمعنا ما فيه الكفاية. لا تظهري كمغلوبة على أمرك يا جميلتي. فهذه لندن المرحة وليست ذلك المكان الذي جئت منه. وهكذا فأنت مقيمة مع جيسون لورد لبعض الوقت. ثم انه لا أحد يلومك. أنا أتمنى أن يكون لي ما يتمتع به جيسون. ولكنني لم أكن أبداً من الطراز الذي لا يقاوم».

قالت كاتريونا في ثقة:

«ولكن الأمر ليس كذلك. لقد كانت ليلة واحدة فقط. وكان الأمر كلّه غلطة».

فضحك، وشاركته مويرا بافتعال، وهي ترقب كاتريونا تتعثر.

«غلطتك بالتأكيد وليست غلطة جيسون، كيف قام بالأمر؟»

صاحت كاتريونا:

«كلا!»

وشعرت كأنها في كابوس. كان عليها أن توضح ما حدث بدون أن تتعرّض لذكر جيريمي، حتى لا تجد مويرا وهيلين ما تشعران من أجله بارتياح ظافر

عبث. حاولت مرة أخرى:

«لقد وجدت نفسي وقد تقطّعت بي السبل. واكتشف جيسون وعرض إيوائي ليلة واحدة. وكان ذلك لطفاً منه. وهذا هو كل شيء».

قالت مويرا وهي تنحني نحوها:

«أخبريني يا آنسة موير. هل كان هذا قبل أو بعد ظهورك في حفل خطبة ابن أخيه، وأنت ترتدين ثوب الكوكتيل هذا. من قدّمه لك؟»

«هو الذي قدّمه لي، ولكنني سأدفع ثمنه».

قالت مويرا، وهي تخرج مبسماً مرصّعاً بالأحجار الكريمة من حقيبتها وتثبت فيه سيكارة:

«هذا نبأ جديد، لا يتفق مع صورة جيسون كفارس يقدّم المأوى للفتيات المشردات».

«ولكنه فعل. وسأقوم بأعمال منزله في غيبة مديّرته، بسبب مرضها».

قال روجر هنت في دهشة ساخرة:

«شيء لا يصدّقه عقل. ومع أنه أمر غريب فلا يمكن إلاّ أن يكون صحيحاً».

ثم التفت الى مويرا التي كانت قد تحجّرت مقلتاها وهي تنفث الدخان بعصبية.

«أعتقد أن شكوكنا القذرة قد ظلمت هذه المخلوقة الجميلة. لقد ظننا أنها آخر غرامياته. فاذا بها سيدة التنظيف! يا لها من خيبة أمل!»

ثم نظر الى كاتريونا وابتسم قائلاً:

«ومتى سترتدين أمريلة يا عزيزتي؟»

«سأبدأ في الصباح».

قالت ذلك بإعياء، وقد حيّرها كيف تورطت في هذا الأمر كله. كان كل ما عليها أن تنهض وتتصرف. ولم تكن مضطرة الى الرد على أسئلتهما المهينة. ولكنهما يعرفان الحقيقة على الأقل الآن. ولن ينظرا اليها باعتبارها عشيقة

جيسون فرغ من أمرها.

استأذن روجر في الانصراف ليصطحب مويرا الى هوغنو، وسأل كاتريونا إن كانت تريد الذهاب، فردّت بالنفي. كان يفزعها خاطر مواجهة جيسون بعدما حدث، فقالت:

«أعتقد انني سأذهب الى البيت الآن، أرجو أن تخبرا سالي بذلك»

قالت مويرا:

«بالطبع»

ثم وهبتها ابتسامة باهتة، وانصرفت. وتابعتها كاتريونا ببصرها. كان هذا اللقاء القبيح قد أفسد يومها.

ثم ما هو دور مويرا في هذا كله؟ أكان بسبب الغيرة؟ أم أنّ هناك سبباً خاصاً يدعوها الى أن تعرف مدى العلاقة بينها وبين جيسون؟

٤ ـ وجه في الذاكرة

لم يكن لدى كاتريونا وقت لتشعر بالحرج، عندما وصلت الى شقة جيسون في الصباح التالي. كانت قد أفرطت في النوم بعد ليلة مضطربة، فلم تلحق بالقطار الذي أرادت أن تستقلّه، واضطرت الى الانتظار بضع دقائق أخرى.

وكان جيسون ينتظر في البهو، وعلى كتفيه معطفه الجلدي، وهو يحدّق في نفاد صبر.

«أخيراً جئت»

«هل كنت تشكّك في ذلك؟»

«كنت أتساءل!»

وقادها الى المطبخ، وعرّفها بأماكن الأشياء، وقال:

«افعلي ما ترينه ضرورياً، ولكن لا تمسّي الأوراق على مكتبي. سأفرزها بنفسي الليلة، ولا تحملي هذا على محمل الاهانة، فالسيدة بيرش لديها نفس التعليمات»

قال ذلك بضيق وكاتريونا تعضّ شفتها بسبب نبرة القسوة في صوته.

«كتبت لك رقم تليفون الاستديو وتليفوني الداخلي في المفكّرة الموضوعة بجوار التليفون. اتصل بي اذا صادفتك مصاعب»

ثم ولّى، وساد السكون. وبدأت كاتريونا تعمل. وعندما حلّت الساعة العاشرة كانت غرف النوم والحمام تتألق. وأعدّت لنفسها بعض القهوة عندما دقّ الجرس، ودهشت عندما رأت روجر شنت ورجلاً آخر على العتبة.

قالت غير مرحبة:

«أنت؟»

«مفاجأة! ألا تدعينا ندخل أيتها الجميلة؟»

«بالطبع لا».

وأوشكت أن تغلق الباب، ولكنه وضع قدمه ليحول دون ذلك.

«أوه، هيّا يا عزيزتي، كوني طيبة. أنت التي ألهمتني الفكرة. سوف ننشر موضوعاً عن الفتيات الجميلات اللواتي يكسبن رزقهن بطرق غير عادية. ونود أن تكوني من بينهن اذا سمحت لنا باستخدامك».

«استخدامي؟ ما معنى ذلك بحق السماء».

«بضع كلمات منتقاة، وعدّة صور، وأجر لك إذا تقرر نشر الموضوع».

«كلا. على الاطلاق».

«ولم لا؟ ليس ثمة ما يضير. مجرّد بضع دقائق من وقتك».

والتقط لها الرجل الآخر صورة. وقال روجر هنت:

«أترين؟ ليس ثمة ما يؤلم. لسنا هنا أنا وغريغ لمضايقتك. وفي وسع كلٍّ منا أن يساعد الآخر. سنحصل نحن على موضوع، وأنت على صكّ مالي».

«ولكنني لا أكسب عيشي بهذه الطريقة. وسأبدأ وظيفتي الحقيقية يوم الاثنين».

«انك تبالغين في القلق، وهناك ما يسمّى بالترخيص الفني على ما تعلمين».

«واذا وافقت، فهل تنتهيان من عملكما وتذهبان؟»

«بالطبع».

ودخلا وشربا القهوة، بينما فكّرت كاثرينا في إعلام جيسون بذلك. ولكنها عندما اتصلت، قالت لها ديان بأنه مشغول بمشاهدة تسجيل لتمثيلية تحت الجلد التي تشارك فيها سالي.

وأذعنت للتصوير، وهي تؤدي أعمال البيت من غرفة الى غرفة، وتجيب على الأسئلة الموجّهة اليها. واستغرق ذلك أكثر من ساعة ونصف. ولكنها عند الظهر كانت قد فرغت من كل شيء، ما عدا غرفة مكتب جيسون. وبينما كانت تنظّفها،

سقطت كومة من الأوراق على الأرض، فانحنت لجمعها، وأدركت أنها جزء من تمثيلية فشرعت تقرأ. وكان المشهد يصوّر مواجهة بين امرأة وزوجها بعد أن اكتشف خيانتها. وكان رجلاً فظاً ومع ذلك فقد بدا حزنه مؤثراً. واستغرقتها القراءة فلم تنتبه لفتح الباب الأمامي. واذ بباب الغرفة يفتح، لتفاجأ بجيسون يطل في تجهّم:

«طلبت منك ألاّ تعبثي بشيء على المكتب».

فانبرت على قدميها محمرّة الوجه:

«لم أقصد أن أتطفّل. ولكن بعض الأوراق سقطت عفواً، فشرعت في القراءة وأنا التقطها، ولم أستطع أن أمسك عن ذلك. أرجو أن تسامحني».

«ليس ثمة ما يدعو الى ذلك».

وبسط يده فناولته الأوراق، وهي تشعر كأنها طفلة تعرّضت للتوبيخ:

«لم أكن أعلم أنك تكتب التمثيليات. كنت أظن أنك تصنع الأفلام التسجيلية فقط».

«لا أحد يعرف سوى هوغو ونخبة قليلة».

ثم قال وهو يهز برأسه عندما رأى من نظرتها أنها أدركت الأمر:

«نعم، أنت محقّة. أنا جون ليزل الذي أبديت اعجابك به كما علمت من سالي. ولو كنت قد عرفت أنني ذلك المؤلّف، لقلّ اعجابك بلا شك».

«كلا. أعتقد أن تحت الجلد تمثيلية ممتازة، وهذه يمكن أن تكون أفضل».

قال وهو يأخذ منها باقي الأوراق:

«ربما ولكن المهم ألاّ يعرف أحد من أنا. أريد أن يكون الحكم على التمثيليات على قدر جدارتها، وليس بمقدار صلتها بشخصي وما قدّمته في الماضي في مجال مختلف تماماً. هل يمكن أن تدركي ذلك؟»

«نعم».

«أنا اذاً بين يديك، فماذا ستفعلين؟»

«لن أفعل شيئاً».

ثم أشرق وجهها بعد حيرة.

«أتعني انني سأقول لأحد؟»

«سيكون ذلك هو الانتقام المثالي اذا شعرت بأنك في حاجة الى ذلك».

حدقت في وجهه عاجزة، ثم تحركت لتتجاوزه وقد طفرت الدموع في عينيها. فأمسك بذراعها في غير شفقة:

«أين تذهبين؟»

«دعني».

«لا تكوني حمقاء!»

وجذبها اليه لتلتفت وتواجهه، وتفرّسها قائلاً:

«ماذا بك هل جرح هذا الاقتراح كبرياءك؟»

قالت غاضبة:

«لم يكن من حقك أن تقول ذلك».

«ربما. لقد أردت فقط أن أتحقق».

«والآن وقد تحققت، أرجو أن تدعني».

«ليس بعد. الآن وقد انكشف سرّي، ولعله في أمان معك، فانّ في وسعك أن تساعديني».

وأشار الى مكتبه المكدّس بالأوراق، وقال:

«سيستغرق مني ذلك نصف الليل لو قمت به وحدي ما رأيك؟ هل تحسنين أعمال السكرتارية كما تحسنين أعمال البيت؟»

توقفت لحظة، وأدركت أنه يمدّ لها غصن زيتون، فبدأ بعض استيائها ينحسر، وقالت موافقة:

«انني أود المساعدة».

«عظيم. هل نبدأ إذاً؟»

وفي البداية ظلاّ يعملان في صمت. ثم بدأ يتحدث عن الدراما التليفزيونية، والأثر الذي يودّ أن يحدثه بتمثيليته. وتساءلت:

«هل تأمل في أن تستحوذ عليك كتابة التمثيليات يوماً؟»

«من السابق لأوانه قول ذلك. ولكنني أود سماع بعض النقد لتمثيلية تحت الجلد قبل أن أتطلع الى المستقبل. وان كان هوغو قد قرأ النسخة الأولى من التمثيلية الجديدة وأعجبته، ويريد إخراجها».

«لا أظنّ أن كتابة التمثيليات تؤدي الى كسب مال وفير».

«تتحدثين كاسكتلندية معقدة. إن لديّ أسهماً في عدد من شركات أخي، ومن ثم فلي دخل غير ما يدره عملي التليفزيوني. ولكنني الآن ملتزم بعمل الأفلام التسجيلية، ولن أعجل باتخاذ قرار آخر».

«ان أخاك أكبر منك سناً. أليس كذلك؟»

«بأحد عشر عاماً. جئت الى الدنيا بعد تفكير ثان! هل تنوين أن تصبحي من المشتغلات بإجراء الأحاديث يا آنسة مويرا؟ لا بدّ أن أجد لك مكاناً في فريقي».

«أوه. كلا!»

واحمرّ وجهها وهي تحاول كتم خاطر ساورها، وهو أنه جذّاب الى حد كبير في مزاجه اللّين الداعب.

وتساءلت ماذا يمكن أن يكون عليه ردّ فعلها لو أنهما تقابلا كأغراب في حفل ما، ولم تكن مضطرة الى النظر اليه باعتباره عمّ الفتى التي أحبته. ثم لامت نفسها على سذاجتها. فلو لم يكن بحثها عن جيريمي ساقها الى مسكنه لما تقابلا على الاطلاق. فعالمه مليء بنساء مثل مويرا دين، ويتقن تماماً فن جذب الاهتمام.

وأخذت ترقبه وهو يفرز الأوراق. كان طرازاً مختلفاً تماماً عن طراز جيريمي. وان كان هناك شبه عائلي يسير. إن وسامة جيريمي كانت تبدو طفولية. أما جيسون لورد فيبدو رجلاً متكاملاً.

وتمّ ترتيب المكتب، ووضعت الأوراق في ملفات بخزانة قائمة تحت النافذة. وقال جيسون:

«حان الوقت لتناول الطعام. هل تناولت الغداء؟»

«لقد نسيت!»

«هات معطفك اذاً، لنخرج».

«لا أستطيع الخروج على هذه الصورة».

وأشارت الى الجينز الرثّ الذي ترتديه، والى السويتر الأسود عالي الرقبة.

«ولم لا؟ كانت هذه ملابسك في وقت ما».

«أعرف ذلك».

«ولكنها لم تعد تناسبك، أليس كذلك؟ ترى ماذا اقترفنا في حقك يا فأرة الريف؟»

ثم صمت لحظة، وقال:

«هل العلّة في الملابس، أم أنك لا تريدين أن تكرّري تجربة الأكل القلقة في رفقتي؟»

فاحمرّ وجهها وهي تتذكر غداء الأستديو، وقالت:

«إنها ملابسي فقط».

«هذا يمكن حلّه بسهولة. هناك مطعم ايطالي ليس بعيداً عن مسكن سالي. سآخذك أولاً لتغيّري ملابسك، بشرط أن تسرعي».

وحارت بين ملابسها، ثم التقطت تنورة صوف بلون البنفسج، ومعها بلوزة حريرية بيضاء بأكمام طويلة، أزرارها من الخلف. وأخطأت في تثبيت الازرار مرّة، وأخرى، واذ بجيسون يقرع الباب.

«ماذا تفعلين بحق السماء؟ أمامك ثلاث دقائق للخروج».

«انني آسفة. ولكنني أعاني بعض المتاعب مع الأزرار و...»

«يا لله... أهذا هو كل ما في الأمر؟»

وبدأ يثبّت الأزرار قبل أن تستطيع منعه. واقشعرّ جسمها. يا لجرأته. يقتحم الغرفة هكذا بدون استئذان! واجتاحها غضب داخلي، وهي تقف متصلّبة تحاول تجاهل دفء أصابعه وهي تمسّ بشرتها.

«هاك!»

«أشكرك، انك لرقيق».

«أنا جائع. لو كنت قد ناديتني منذ خمس دقائق، لكنا نأكل الآن».

وتناولت حقيبتها ومضت الى الباب وهي ترمقه بابتسامة حلوة، وقالت:

«كان هذا حقاً مني. ولكنني لم أعتد أن يساعدني رجل على ارتداء ملابسي».

«لقد ساعدتك مرّة على خلع ملابسك على نحو يجعلني موضع استثناء».

قال ذلك وهو يبتسم بشكل غير محبّب، بينما تورّد وجهها، ثم استطرد:

«ذاكرتك ضعيفة يا عزيزتي. في المرّة التالية سأحاول أن أجعل الأمر باعثاً على تعميق الذاكرة»

برقت دموع الخزي في عينيها وهي تحدّق فيه عاجزة، وقالت بصوت خفيض:

«لا أدري كيف تذكّرني بتلك الليلة الشنيعة. لا أشعر عندما أتذكرها إلا بالعار».

«انك لحمقاء اذاً. اذا كان ثمة من يأسف فهو أنا».

«وعلام؟»

«على تركك وحدك!»

وتقوّس فمه في سخرية وهو يرقب ذهولها، وقال:

«أردت أن أثير فيك شعوراً بالصدمة لأخرجك من تعلقك بجيريمي».

«وهل كنت تعتقد انك تستطيع شفائي في ليلة واحدة؟»

لو لم تكن كاتريونا تشعر بالغضب البالغ لضحكت من غطرسة هذا المخلوق الذي يتصوّر أن له قدرة فائقة.

وأضافت:

«انك تطري نفسك يا سيد لورد».

«هل أفعل ذلك حقاً؟»

واقترب منها، ووجدت نفسها تتساءل لماذا ظنّت أن عينيه باردتان قاسيتان، بينما هما تشعّان بهذا البريق الغريب غير المألوف. وما لبث أن مدّ يديه اليها يحضنها، وبينما كانت تطلق صيحة احتجاج غاضبة، مال عليها وعانقها بعنف. وأخذ يعبث بالسلسلة الفضية التي تحمل خاتم جيريمي، فتراجعت وهو يقول:

«ألا تزالين متعلّقة بالأمل؟»

فقالت وهي تقبض على الخاتم:

«لا أظنّ أن رجلاً خبيراً بالدنيا مثلك يعرف معنى كلمة الاخلاص أو الوفاء»

«هي كلمات لا معنى لها بالنسبة الى جيربي. أما بالنسبة إليك...»

وتقوّست شفتاه في سخرية، فاحمرّ وجهها خزياً وغضباً. كيف سمحت له من بين الناس جميعاً أن يتصرّف هكذا؟ لا أحد، ولا حتى جيربي، سمحت له بأن يعانقها أو يمسها على هذا النحو. العمة جيسي ربّتها على فرط إحترام الذات. أما الآن فقد اختلط عليها الأمر، كأنما انقلب ميزان قيمها بفعل ساحر شرير. وامتلأت عيناها بالدموع وهي تصلح ملابسها، فقال:

«دعيني أسوّيها لك»

فصاحت فيه، وغضبها يسبق شعورها بالذنب والحيرة:

«لا تلمسني!»

فأحنى رأسه وتحوّل عنها، بينما أخذت تسوّي هندامها بيدين مرتعشتين. ولم تستطع أن تفهم كيف أوشكت أن تخون مبادئها مع رجل مثله. لا بد أنه يعتقد أنّ مشاعرها ضحلة مثل مشاعره. إنّ نظرته الى النساء لا تشرّف ومع ذلك فمن العسير على أحد أن يصدّق أن في وسعها أن تحمل قلباً توّاقاً الى جيربي، بينما تسمح لرجل آخر بأن يعانقها على هذا النحو.

وخشيت فجأة أن تنفجر باكية، فجلست على طرف الفراش وغطت وجهها بيديها. وكان جسمها كلّه يضطرب مما تحدثه تربيتات يده وملاطفاته. وللضعف النفسي الغادر الذي أخذ يكتنفها.

جلس أمامها القرفصاء قائلاً:

« كاتريونا... اذا لم تنظري إليّ، فعلى الأقل استمعي إليّ»

«ليس لديك ما تقوله لي وأريد سماعه. وأمل ألاّ تقع عيناي عليك مرة أخرى»

تنهّد قلقاً، وقال:

«ليس في وسعك أن تسامحيني لأنني جعلتك ترين الحقيقة بشأن جيربي أيتها الحمقاء، والصغيرة العنيدة. لا بدّ لك من وهم تتعلّقين به برغم كل الأدلة»

«وماذا تعرف أنت عن الحقيقة، انّ ما تشعر به، أنا وجيربي، كان شيئاً جميلاً ونظيفاً، وليس مثل...»

فأمسك بيديها فجأة، وجذبها بعيداً عن وجهها، وقال:

«لقد أوشكت أن أصبح الليلة حبيبك، فلا تواصلي الأمر وكأنني أفسدت براءتك. ومهما خدعت نفسك بشأن مشاعرك إزاء ابن أخي المنحرف، فانك تحت مظهرك المهذّب امرأة بكلّ معنى الكلمة. فكفّي عن عقابنا معاً على أمر لم يحدث، أم انك تعاتبينني لأنه لم يحدث؟»

فانتزعت يدها ولطمته على وجهه، ثم تراجعت وقد انتابها الفزع لما فعلت خوفاً من أن ينتقم منها على نحو ما. ولكنه نهض ببطء، ووقف يتطلّع اليها بعينين متقدتين، وقال:

«استمتعي بعقابك»

ثم انصرف خارجاً، وسمعت الباب الخارجي يغلق. وطوّقت نفسها بذراعيها وهي تتقلّص، محاولة أن تمنع القشعريرة التي انتابتها. واحسّت بوخزة خاتم جيربي في لحمها. ربما ينتمي الآن الى هيلين، ولكن خاتمه يخصّها. واذا لم يكن في وسعها بعد الآن أن تعدّه رمزاً للحب، فلعلّه يكون تعويذة لبقائها سالمة. ولكن ممّن؟ من جيسون لورد، أم من نفسها؟ لم تجد جواباً لذلك، ولا حتى في الليل الطويل الذي أعقب ما حدث!

وكانت لا تزال تشعر بالفتور وهي تت[redacted]مقر عملها الجديد صباح الأثنين. أمضت هي وسالي عطلة الأسبوع [redacted] أصناف [redacted] وتنظيف الشقة. وفي يوم الأحد أخذتا بعض الشطائر وتناولتا الغداء في ح[redacted] هايد بارك. وقد لامت نفسها من نواح كثيرة على ما حدث مع جيسون. و[redacted] بأنها تساءلت في ر[redacted]يمكن أن يكون شعورها وهي بين ذراعيه. وهي الآن تعرف وقد أفاد[redacted]

أثبتت لنفسها ال[redacted] الأقل شكل [redacted] مع النساء. قال أموراً قاسية [redacted] جيربي، ولكن هل هو أفضل م[redacted]لم يحاول غوايتها. وهمس في

«ستصلك رسالة رسمية من سكرتيرة المؤسسة بالطبع. فإنّ المؤسسة لا تستطيع أن توافق على الأعباء المالية التي يتطلّبها هذا التعديل. انني آسفة يا سيد ميلر، ولكن في الظروف الاقتصادية الحالية. من يدري! من المحقق اننا لم نكن محظوظين في الماضي. لقد كان أندرو يتقدم دائماً بطلبات الى المؤسسات الخيرية الأخرى، فكانت تعتذر بأعبائها الخاصة. ما أكثر رسائل التماس المعونة التي تخرج وما أقلّ الردود الايجابية. من المفزع أن يذهب عمل أندرو هباء. لقد سعى جاهداً ولكن كل ما تلقاه كان رفضاً وخيبة أمل، ومن أناس كان المفروض أن يقفوا بجانبه».

قالت ذلك بحدّة أدهشت كاتريونا التي تدخلت:

«انني موقنة أن الوقت لم يفت بعد. ربما نستطيع توجيه نداء».

«لسنا من المؤسسات الخيرية الكبرى التي تتحمّل إنفاق المال لتحصل على المال. ليس لدينا ما نضيّعه على الدعاية التي نحتاجها».

«ولكن هناك نداءات من أجل الأعمال الخيرية دائماً في التليفزيون».

«ان جاذبيتنا ليست واسعة على نحو يكفي لهذه التغطية. وفي أي حال من نعرف في عالم التليفزيون؟»

وبقيت كاتريونا جالسة الى مائدة الفطور وقد استغرقها التفكير. ثمة أمور تشغلها. أولاً مشاعر جين إزاء أندرو التي بدت من طريقة حديثها، أعمق بكثير من مجرّد شعور زميلة نحو الزميل. وأيقنت أنهما متماسان أحدهما للآخر، وتمنّت أن تنتهي الأمور بينهما على ما يرام، ولكنّ علاقتهما قد تتأثر إذا زاد القلق بالنسبة الى مستقبل المركز، أو إذا أُغلق. وفكّرت في أن تعود الى المكتب لتتمّ عملها، ولكنها أدركت أن جين ربما كانت هناك مع أندرو الآن. وهذا موقف يقتضي أن يكونا منفردين، فمضت الى غرفة الجلوس العامة. هي في حاجة الى وقت للتفكير والتوافق مع فكرة طرأت بعنف على ذهنها المتردد، ومستوحاة من بعض ما قالته جين. وأحسّت بحركة في الغرفة، واذ بيتش تجلس في ركن تحتضن قيثارها.

وربما أجد رداء لمعالجة ذلك».

«طبعاً. انني موقن أن جين حسناً. ستقابلينها بعد قليل».

وبينما كانا يحتسيان القهوة، أخبرها بعمل الشركة.

«كان جيمس هندرسون شخصية عظيمة، ممتلئة بالرحمة. وعرف ما يريد من هذا المكان، ولكنه مات قبل إتمام البناء. والمؤسسة الآن تديرها أرملته السيدة أليس هندرسون، وستقابلينها أيضاً عما قريب».

وبدأ يطوف بها المبنى، فتساءلت:

«من ينتفع بالمركز؟»

«أي انسان يريد مأوى ما. الأسر المشردة، والأمهات غير المتزوجات، والزوجات المسحقات، والشباب الذين غادروا بيت الاسرة لسبب ما، والزوجات أو الأزواج الذين هجروا منازلهم. أحياناً نكتشف الأسباب، وأحياناً أخرى لا نكتشفها، ما لم يتطوعوا بذكرها. فنحن لا نتطفّل. وهناك عمل اجتماعي بجانب ذلك، ولكنني لن أزجّ بك فيه الآن. وآمل أن أجري قريباً دراسة على الحالات المماثلة لأعرف أية ضغوط تجعل الناس يفلتون. ولكنني كنت مضطراً للانتظار حتى أجد أحداً للمكتب أثق به، ويثق به النزلاء. لأن البعض منهم موجودون منذ وقت طويل، وتغيّر الوجوه في المكتب يجعلهم حذرين. أما عن جين فهي ترعى النواحي المنزلية، ونحن هنا منذ افتتاح المركز».

وبينما كانا يطوفان بالمبنى، لحظت كاتريونا حالة الغرف الخربة والأثاث المهدم، فقالت:

«أظنّ أنّ المال كان دائماً مشكلة».

«اننا أوفر حظاً من منظمات أخرى كثيرة لأنّ لنا دخلاً منتظماً. فقد خصّص السيد هندرسون جزءاً كبيراً من ثروته واستثماراته لتمويل المؤسسة، ولكن السيدة هندرسون لا توافق على المركز، وهي صريحة في ذلك، وترى أن السماء تساعد من يساعدون أنفسهم. ولا تقرّ الطريقة الخاصة التي تدير بها الأمور هنا».

وجذب ياقة السويتر، فظهرت من تحتها ياقة ملابسه الدينية وقالت

كاتريونا:

«أنت لست كما عهدت من قساوسة».

«سأعتبر ذلك مديحاً. والآن تعالي لمقابلة جين».

وحتق فيها الجميع في المطبخ، ولكن جين، وهي فتاة ممتلئة لها هيئة الطباخات، هشت لها.

وبينما كانت تساعدها في إعداد الموائد لوجبة الغداء، سألتها عن النزلاء الحاليين.

«سيبدأون في التقرب منك بعد يوم أو يومين. وقد تعرفين قصة حياة كل منهم مع أسمائهم، فيما عدا ميتش».

«ومن هي ميتش؟»

«هذا هو الموضوع. من هي؟ انها تبدو من سلوكها وكأنها فاقدة الذاكرة. ولكننا لسنا مقتنعين أنا وأندرو، فالأعراض الأصلية لا تبدو عليها. وقد جاءت هنا في منتصف الليل منذ ثلاثة أسابيع تحمل غيتاراً في حقيبة، وهذا هو كل شيء».

«أهي تعزف على الغيتار؟»

«حسب ما أعرف لم تفعل منذ وصلت. واذا دخلت غرفة الجلوس فلن تخطئيها. فهي تجلس في ركن تحتضن الغيتار. وقد طلب منها أحد الصغار مرّة إثر وصولها أن تعزف لهم، فكادت تهاجمه لولا تدخل أندرو».

«كان هذا حدثاً غير عادي اذاً؟»

«العنف؛ عندما تنظرين الى تلك النخبة المختلطة التي نؤويها، فقد تعجبين من أنّ العنف لا يحدث كثيراً. والعادة أنّ الناس يرغبون بنوع من الاتصال مهما كان عارضاً مع سائر النزلاء. ولكن الأمر ليس هكذا مع ميتش. انها متروكة وحدها الآن، ولا تبدي علامة على أنها تريد الوقوف على قدميها أو التقدم. وهذه علامة سيئة. لقد حدثت مآس في الماضي، ولكنني لا أريد أن تكون هي واحدة منهن».

«ومن أين لكم أن تعرفوا ان اسمها ميتش؟»

«لا أعرف. لقد انتابها كابوس في إحدى الليالي بعد مجيئها، فأيقظت كل من في

الغرفة بصراخها ميتش...! ولم تفسّر ذلك بالطبع، فقررنا أن نطلق عليها هذا الاسم كدليل عليها. ويريد اندرو أن يجعلها تتصل بالدكتور وينتروز، الطبيب النفسي في المستشفى العام، ولكنه ينتظر حتى نستطيع أن نعرف منها شيئاً. وهي ترفض تماماً فكرة العلاج، ونحن لا نضغط على أحد هنا».

وشعرت كاتريونا بفضول إزاء ميتش الغامضة، ولكنها أصيبت بخيبة أمل عندما لم تحضر الفتاة على الغداء. وبعده بدأت تعمل مع أندرو في المكتب لتطهيره من الفوضى، ودهشت لأنّ الوقت مضى بسرعة.

وصلت البيت قبل سالي، التي كانت تشترك في بروفة احدى التمثيليات. وبعد أن أعدّت الطعام واستحمّت وارتدت الروب وأخذت تجفف شعرها، دقّ جرس الباب لتجد لدهشتها جيريمي أمامها.

«مرحباً كاتريونا. جئت في وقت غير مناسب. هل لي أن أدخل؟»

فأحكمت حزام الروب على وسطها، وانتحت جانباً ليدخل.

«هل سالي هنا؟»

«ستأتي بين لحظة وأخرى».

دهشت كاتريونا لتحكّمها في صوتها برغم أن أعماقها كانت تغلي. لقد ظلّت لعدّة أسابيع تتوق الى هذه اللحظة التي تجده فيها أمامها. خطا الى قرب المدفأة وتطلّع الى السجادة. كانت قد نسيت جاذبيته الآن، ووقفت معقودة الذراعين ترقبه وتتذكر بألم جديد كم كانا سعيدين، وما لبثت أن تنهدت وقدم لها سيكارة فأبت فأشعل هو واحدة.

«هل أردت... شيئاً؟»

«ما كان يجب أن أكون هنا يا ترينا أعرف ذلك. لكن كان لا بدّ لي من الحضور. لقد حاولت أن أظلّ بعيداً، حاولت حقيقة. ولا أدري ماذا يمكن أن أقول لك».

«هل هناك ما يقال؟ كانت غلطتي يا جيريمي. أن مجلات المرأة مليئة بالنصائح للفتيات على ألاّ يحملن غراميات العطلات على محمل الجد. ولكنني فعلت ذلك.

«فلست أنت مضطراً لأن تستاء من نفسك».

وغاض صوتها فاقترب منها وتطلّع الى وجهها.

«ولكنني مستاء. لم أكن أسلّ نفسي. لقد أحببتك، وعنيت كل كلمة قلتها، وأردت الزواج منك».

فقاطعته كاتريونا، وهي تشعر فجأة بضيق مستبد:

«لا أظن أنه يجب عليك قول المزيد. لا تنس انك خاطب و...»

فاطلق ضحكة قصيرة خلت من المرح، وقال:

«أتساءل! ليس أمامي فرصة لذلك. ان هيلين تقيم معنا، وهي وأمي لا تفعلان شيئاً سوى الحديث عن الزواج والبيوت والأثاث، حتى أوشكت أن أنفجر».

«النساء يحببن الحديث عن مثل هذه الأمور. وقد كنت أظنّ أن هذا أيضاً ما تريده».

«أنا، لا أعرف ما أريد يا تريتا. لقد أعددت كل شيء عندما عدت الى لندن، ولكن بدأ كل شيء عندئذ يتهاوى. كانت أمي وهيلين في انتظاري. انني أتبين ذلك الآن، فلماذا لم أتبيّنه وقتئذ؟»

«لا اعرف ما تريد مني أن أقوله».

«أعتقد أنّ الخيار لم يكن من صنعي. لقد فرض عليّ».

قالت كاتريونا بحدة بدون أن تزن كلماتها:

«لا بد أنك أحمق اذاً. إنه لانسان ضئيل ذلك الرجل الذي يترك النساء من حوله يقررن له مستقبله كله بدل أن يقف هو على قدميه».

واضطرتها التعبيرات على وجه جيريمي الى الصمت. ورأت على الفور أنها آلمته وأساءت اليه، وأدركت أن هذه أول مرة تنتقده فيها علناً.

قال مجروحاً:

«كنت أظن انك ستفهمين على الأقل».

«ليس هناك الكثير لأفهمه. لقد طلبت من هيلين أن تتزوجك. والناس لا يفعلون ذلك في يومنا هذا إلاّ اذا كانوا يحبون. وأستطيع أن أقول إذا كانت

...يك الآن أفكار أخرى، فانها ستمرّ مروراً عابراً».

قال والحيرة تبدو في صوته:

«...تي لم أعهدك هكذا من قبل».

«لقد أتيح لي وقت لأفكر قليلاً منذ ذلك الصيف في توروفيج».

«...ذا ما كان يفعله عمي العزيز يساعدك على أن تكبري؟»

انتفضت لنبرة الاحتقار في صوته. هذا جانب من جيريمي لم تعرفه من قبل. أرادت أن ترد عليه بعنف، ولكنها لم تجد ما تقول، وفكّرت وهي متألمة في أنه أقرب الى الهدف مما يظن. فسألها فجأة:

«كيف قابلته؟»

«كنت أبحث عنك. وأعطاني أحدهم، صاحبة البيت الذي كنت تنزل فيه، عنوانه».

«أوه، نعم، لقد نسيت. لكنني لا أفهم بعد... أعني... أنك لست من طراز جيسون».

قالت وهي تشعر بحلقها تتقلص:

«أيضاً؛ كنت أظن أنني فتاتك، وكنت مخطئة في هذا أيضاً».

مدّ يديه نحوها بعد أن طرح سيكارته في منفضة، وقال:

«أوه يا تريتا... يا جميلتي».

فتراجعت في شبه ذعر تحاول أن تتجنب تطويق يديه.

«يا جيريمي ليس هذا بالأمر الصواب أرجوك!»

ولكنه لم يصغ اليها:

«منذ تلك الليلة يا تريتا وأنا أفكّر فيك. دعيني أعانقك يا حبيبتي أرجوك. لن أستطيع أن أتحمّل الأمر بغير ذلك».

كانت كاتريونا تسمع، وقلبها يغوص الى قدميها، صيحة الطفل المدلل في صوته. ماذا يهمّ؟ انها بين ذراعي جيريمي، وكان يجب أن تكون سعيدة، ولكن بدلاً من ذلك كانت تشعر برغبتها في التحرر من ذراعيه.

حدّق فيها بوجه محمرّ، وقد ركبته الخيبة لعدم استجابتها:

«ما بالك؟»

«وماذا عن هيلين هذه هي المسألة!»

«سأفكّر في شيء، يا حبيبتي. لا بد أن تثقي بي».

وحاول أن يأخذها بين ذراعيه مرة أخرى، ولكنها هربت منه.

كان ثمة صوت في داخلها يصرخ بأنها كانت تثق به، تثق به الى الحد الذي تركت معه كل شيء تعرفه، وقطعت مئات الأميال الى هذه المدينة الشبيهة بالسجن. كانت تعلم انها لا تنصف موطنها الجديد، لأنّ التغيرات التي طرأت على حياتها لم تكن الى أسوأ. وتذكّرت المركز والتحديات التي يمثلها، وتذكّرت جين واندرو ورفقة سالي المرحة، لذلك أغلقت ذهنها رافضة ما تلا ذلك من صورة جادت على غير طلب أو ترحيب، وأبعدت الوجه الأسمر الساخر، وجه الرجل الذي علّمها في درس قصير معنى الاستجابة.

قالت بصوت تتخلّله رعشة:

«أظن أنه من الأفضل أن تذهب»

قال مهدئاً:

«أعرف ذلك، انك لم تتغيرّي كثيراً كما تظنين يا حبيبتي».

وأخذ يدها وطبع في كفها قبلة طويلة، قائلاً:

«سنتقابل مرة أخرى عما قريب».

وجلست بعد انصرافه تحاول أن تجمع أفكارها. لقد لامت جيريمي لأنه متقلّب، فهل هي أفضل من ذلك؟ كان كل عالمها يتمثّل من قبل في أن تكون بين ذراعيه، أما الان فيفزعها عدم اكتراثها بتوقده إليها.

لم تصدّق ما حدث لها في هذه الفترة القصيرة من الوقت. كانت تظن أنّ علاقتها بجيريمي تسمو الى الكمال، ولكنها تسلّم الآن مضطرة، بأنّ هذا الكمال كان حلماً بدّده ضوء النهار، وما يمثله من واقع قاس. وأدركت أيضاً أنه لو اختلفت الأمور فربما تزوّجت جيريمي في براءة تامة، وعاشت معه حياة راضية

غير مدركة لما عرفته بعد ذلك من همسات الرقة على يدي جيسون. ودفنت وجهها بين يديها وهي تعضّ شفتها، وتقول لنفسها أنه كان يمكن أن تكون في حال أفضل بغير هذه المعرفة. والآن... فان جيريمي قد عاد من جديد الى حياتها، وهي لا تعرف ماذا تفعل. وفكّرت في أنه من الخطأ تشجيعه على قطع علاقته مع هيلين، في الوقت الذي لا تزال فيه متشككة إزاء إحتمال عودة المياه الى مجاريها. قد تقابل جيريمي مرّة ثانية ولكن بشروطها هذه المرة لا بشروطه، ولا بدّ أن توضح له ذلك.

وبينما كانت تعد الطعام، قطعت السكين إصبعها. فصاحت وهي تعني جيريمي وجيسون:

«اللعنة عليهما معاً... أتمنى لو لم أقابل أياً منهما أبداً!»

ولكنها وهي تلعق الدم من إصبعها، أحسّت من دفئه وكأنّ رقة ما تطلّ من وجه أسمر في الذاكرة.

٥ ـ عاصفة الدموع

بعد أن أوشك أسبوعها الأول في المركز على الانقضاء، شعرت كاتريونا بنوع من الرضى المشوب بالتعب.

المكتب الآن قد انتظم، وألفت النزلاء، وبدأوا يألفونها. قالت لها السيدة لامب، وهي سيدة في أوائل الثلاثينات، يبدو عليها الانهاك، هجرها زوجها معدمة ومعها ثلاثة أطفال صغار:

«إن لك اسماً جميلاً. لقد قرأت مرّة كتاباً بهذا الاسم».

وقالت لها ليندا، وهي أم غير متزوجة تحمل طفلاً صغيراً:

«قضيت مرّة إحدى العطلات في اسكوتلندا مع أمي وأبي».

وكان من العسير عليها أن تبتعد بعواطفها الشخصية عن هؤلاء الناس، كما نصحها بذلك اندرو وجين عدّة مرات. كانا يهبان التعاطف بدون مشاعر اللطف والعطف وبدون فرط الرعاية والحماية. وبينما هي عائدة الى المكتب، شاهدت من وراء الباب أندرو يقف مهندماً ومعه سيدة قدمها إليها على أنها السيدة هندرسون. كانت نحيلة، ممشوقة القوام، ذات عينين باردتين، شعرت كاتريونا بأنهما تقيسانها من قمة رأسها الى أخمص قدميها.

قالت السيدة:

«أخشى ألا أكون حملت لك أنباء سيئة يا سيد ميلتر».

وناولته مظروفاً مكتظاً، ونظرت كاتريونا الى أندرو فوجدت وجهه يتصلّب كأنما تلقى ضربة.

«ستصلك رسالة رسمية من سكرتيرة المؤسسة بالطبع. فإنّ المؤسسة لا تستطيع أن توافق على الأعباء المالية التي يتطلّبها هذا التعديل. انني آسفة يا سيد ميلتر، ولكن في الظروف الاقتصادية الحالية، من يدري! من المحقق اننا لم نكن محظوظين في الماضي. لقد كان أندرو يتقدّم دائماً بطلبات الى المؤسسات الخيرية الأخرى، فكانت تعتذر بأعبائها الخاصة. ما أكثر رسائل التماس المعونة التي تخرج وما أقلّ الردود الايجابية. من المفزع أن يذهب عمل أندرو هباء. لقد سعى جاهداً ولكن كل ما تلقّاه كان رفضاً وخيبة أمل، ومن أساس كان المفروض أن يقفوا بجانبه».

قالت ذلك بحدّة أدهشت كاتريونا التي تدخلت:

«انني موقنة أن الوقت لم يفت بعد. ربما نستطيع توجيه نداء».

«لسنا من المؤسسات الخيرية الكبرى التي تتحمّل إنفاق المال لتحصل على المال. ليس لدينا ما نضيّعه على الدعاية التي نحتاجها».

«ولكن هناك نداءات من أجل الأعمال الخيرية دائماً في التليفزيون».

«ان جاذبيتنا ليست واسعة على نحو يكفي لهذه التغطية. وفي أي حال من نعرف في عالم التليفزيون؟!»

وبقيت كاتريونا جالسة الى مائدة المطبخ وقد استغرقها التفكير. ثمة أمور تشغلها. أولاً مشاعر جين إزاء أندرو التي بدت من طريقة حديثها، أعمق بكثير من مجرّد شعور زميلة نحو الزميل. وأيقنت أنها مناسبان أحدهما للآخر. ولئت أن تنتهي الأمور بينهما على ما يرام، ولكنّ علاقتهما قد تتأثر إذا زاد القلق بالنسبة الى مستقبل المركز، أو إذا أغلق. وفكّرت في أن تعود الى المكتب لتتمّ عملها، ولكنها أدركت أن جين ربما كانت هناك مع أندرو الآن، وهذا موقف يقتضي أن يكونا منفردين. فمضت الى غرفة الجلوس العامة. هي في حاجة الى وقت للتفكير والتوافق مع فكرة طرأت بعنف على ذهنها المتردد، ومستوحاة من بعض ما قالته جين. وأحسّت بحركة في الغرفة، وإذ بمتش تجلس في ركن تحتضن غيتارها.

رأت أنّ هذه فرصة مؤاتية لأن تحاول الاقتراب منها. قالت:

«انني أعرف على القيثار أيضاً وأغني. هل تغنين يا ميتش؟»

هزّت لها رأسها هزّة خفيفة.

«هذا أمر مؤسف، لأنّ هذا القيثار جميل. هل تملكينه منذ وقت طويل؟»

نفس الهزة الضئيلة للرأس.

«ما هو لحنك المفضّل. أنا لديّ الكثير»

وبدأت تردّد أسماء الأغاني الشهيرة، ولكن ميتش لم تبد على وجهها أية استجابة.

وبدأت تغني بعض المقاطع، وعلا صوتها وهي تردّد: حزينة أنا من غيرك.

فنفرت ميتش عندئذ واطرح المقعد الذي كانت تجلس عليه أرضاً، وصاحت في شبه صرخة هستيرية، وهي تندفع خارج الغرفة متقدة العينين:

«دعيني وحدي، ألا تستطيعين؟»

ذهلت كاتريونا لردّ فعلها. لم يكن هذا ما تأمله، ولكنه بداية ما. وظلّت مكتئبة عندما عادت الى الشقة تلك الليلة، وأعارتها سالي اذناً متعاطفة.

قالت لها سالي بعد أن انتهت من ترديد متاعب اليوم:

«إن ما تحتاجينه هو الخروج من نفسك. ما رأيك في الذهاب الى حفل؟»

«حفل؟ حفل من؟»

«إليك الأنباء السيئة الآن. حفل مويرا. لقد دعت بعض الناس الى شقتها في ليلة الغد، ودعتني لسبب غامض، وقيل لي أنّ في وسعي أن أصطحب معي مشاركتي الصغيرة في المسكن. إن حفلات مويرا تعدّ مسلية، وقد تستمتعين بها على دهشة منك. فأنت تبدين كالشبح هذه الأيام».

«ولكن، ليس عندي ما أرتديه».

ورفضت كاتريونا اقتراح سالي بأن ترتدي أحد أثوابها فعرضت عليها ثانية ثوباً اشترته لاحدى البروفات، ولكنها لم تحظ بالدور، وجاءت به فارتدته كاتريونا لتجربته، وكان ثوباً أبيض ذا طيّات ناعمة في جزئه الأسفل الواسع،

وقد أظهر صدره جمال كتفيها، له أكمام واسعة شبه شفافة تنتهي عند الرسغ بكشكشات. وقالت لنفسها إنها تبدو فيه كالعروس، ولم يسرّها هذا الخاطر، ولكنها عزمت على ارتدائه عند الذهاب.

وبينما هي تعيد الثوب الى الخزانة، كانت يداها ترتعدان. لم تكن تشك في أن جيسون لورد سيكون في حفل مويرا. كل ما فكّرت أن تفعله، هو أن تطلب منه مساعدتها لعرض نداء من أجل المركز على شاشة التلفزيون. فله إتصالات كثيرة في هذا المجال وفي وسعه أن يساعد. قالت لنفسها ذلك مرّات ومرّات محاولة إقناع نفسها ودعم ثقتها في الوقت الذي كانت فيه مشاعرها تجفل من مثل هذا العمل، ولكنها كانت تفعله من أجل المركز، وحتى لو رفض، فستكون قد حاولت على الأقل.

وعاودتها شكوكها مع خجلها الساحق عندما وقفت أخيراً مع سالي في بهو مسكن مويرا. ورغم أنهما جاءتا بعد الموعد بنصف ساعة، فقد كانتا أول من وصل، ودعتهما فتاة فيليبينية الى الانتظار في غرفة الجلوس. وفغرت كاتريونا فمها وهي تتطلّع حولها. كانت الجدران والسجادة بيضاء ناصعة. وكل شيء عدا ذلك، كقماش التنجيد والستائر، أحمر فاقعاً. وما لبثت مويرا أن جاءت ترتدي ثوباً يغلب عليه السواد محلىً بشرائط ذهبية وواسع الصدار، أحكم على جسمها المشبع بالغواية، كما أشاع دخولها الغرفة شذى ما تتعطر به.

«أحبائي!»

ونظرت اليهما بابتسامة باهتة وسريعة، وشملت ثوبيهما بنظرة عابرة، ثمّ أدارت بعض الموسيقى من جهاز في الركن. وقالت:

«يمكنكما في الحقيقة أن تكونا ملاكين وتساعداني. ان ياسمين المسكينة ليست لها خبرة كبيرة بالحفلات، فهل لكما أن تطلاّ على المطبخ للاطمئنان الى أنّ كل شيء على ما يرام؟ سأكون شاكرة».

حطّ سكون يشي بالذهول. ورأت كاتريونا في ملامح سالي ما ينبيء بالغضب. ولكن سالي قالت، بنفس حلاوة صوت مويرا وابتسامتها:

«لا نبالي بالطبع أن تذهب. فاذا وجدت لنا مربلتين، فاننا نستطيع أيضاً تقديم المشروبات»

احمرّ وجه موبرا وقالت ببرود:

«هذا تجاوز للحد»

وقالت سالي لكاتريونا وهما في المطبخ تنظفان صواني الشطائر:

«كنت أعلم أنّ هناك دافعاً وراء الدعوة. لقد أرادت أن تحصل على مساعدة بلا أجر في الاعداد للأمسية»

وعندما عادتا الى غرفة الجلوس، كان الحفل في ذروته، وكان ثمة مكان في وسط الغرفة للرقص، وبعض الأزواج يرقصون فعلاً. وقفت كاتريونا وقد عاودها الخجل في ركن ومعها كوب من العصير. كانت تعلم أنها حمقاء اذ تعلّق أملها، بعد تلك الليلة. فلا يوجد رجل، لاسيما اذا كان مثله، يحب أن يتذكر أن فتاة غير متحذلقة مثلها قد رفضته. ثم ماذا يعنيه في الأمر ما دامت هناك نساء مثل موبرا يعطينه كلّ ما يطلب؟

طلبت منها سالي أن تختلط بالمدعوين، والا أعادتها موبرا الى المطبخ لغسل الأكواب! وبينما كانت على وشك أن تفعل، أحست بقدوم وافد جديد. كان جيريمي! وجدت نفسها تئن من الأعماق. فقد كان آخر من تتوقع رؤيته. ولكنها نسيت أن خطيبته قريبة موبرا دين.

«تريتا، يا لها من مفاجأة!»

«مفاجأة لي أيضاً. أين هيلين؟»

«أوه، ذهبت الى الشمال على نحو مفاجئ. جدّتها مريضة على ما يبدو»

«ألم تشأ أن تذهب معها؟»

«محال. فالعمل يشغلني. ولكنني وجدت نفسي الليلة في فراغ، فقررت قبول دعوة موبرا. ولكن كيف جئت أنت؟ لم أكن أعلم أنك وموبرا صديقتان»

«دعيت أنا وسالي على سبيل إكمال العدد»

فابتسم لها وأخذ بيدها، قائلاً:

«لم تكن الأمور لتصلح أكثر مما هي الآن صالحة. تعالي لنرقص»

وترددت كاتريونا، وهي تدرك نظرة موبرا المتسائلة وهي مثبتة عليها. والى جانب أنها لم تكن تشعر بميل للرقص مع جيريمي، فقد تصوّرت ما يمكن أن يكون عليه ردة الفعل لدى جيسون لو أنه وصل ووجدها معه.

ولكنه حثها فصحبته، وضمّها اليه وهما يرقصان. وسألها إن كانت سعيدة فلم تعرف كيف ترد. فالحقيقة كانت تشعر بتوتر وضيق، وهي مشاعر لم تكن تتوقعها أبداً وهي بين ذراعي جيريمي، وزاد ضيقها عندما مسّت شفتاه جبهتها، فنهرته وابتعدت عنه قليلاً. قال حائراً:

«ما بالك؟»

«ما كنت تفعل ذلك في وجود هيلين»

«ربما. ولكنها بعيدة!»

«وهل يشكّل فارقاً ما!»

«هيلين قد كبرت الآن. وهي تعلم حقائق الأمور»

«ولكن موبرا تراقبنا»

«دعيها. انها تفضّل أن تراك معي على أن تراك مع عمي جيسون»

ابتلعت كاتريونا كلماته بغصّة. فقد خطر لها أنها تفعل كل ما في وسعها لتتجاهل حقيقة أن جيسون وموبرا أكثر من صديقين ولم تستطع أن تحلّل مشاعرها أو التغيرات التي ألمّت بمعتقداتها أخيراً. لقد تحدثت الى جيسون عن الوفاء. ولكن هل تعرف معنى هذه الكلمة حقاً. فلأي شيء، كانت هي وفية مخلصة؟ لقد وهبت قلبها لغريب عابر، وكان رده أن خانها مع فتاة أخرى. وهو الآن يبدو وكأنه يريد أن يعكس الموقف فيخون خطيبته معها. وقالت لنفسها وهي تأسف على الصيف الضائع وبراءته كم كانت حمقاء. وشعرت بارتياح عندما كفّت الموسيقى ووجدت مبرراً للفرار. وانشغلت بعد ذلك بالرقص مع الممثلين الذين كانوا يحيطون بسالي. واذا بها تتنبّه لوصول جيسون لورد، كما وجدت موبرا ترحّب به وتلقي بنفسها بين ذراعيه. واستطاعت كاتريونا برغم ذلك

أن تبتسم لمرافقها في الرقص، وهو شاب آخر

وعندما التقت أعينها أخيراً، اكتفى برفع حاجبيه قليلاً ولم يظهر عليه غضب أو استياء. ربما إذاً تستطيع أن تقترب منه لتحدثه بأمر المركز خلال الأمسية في غير ارتباك كبير. وشعرت بسرور عندئذ فبدأت تهمهم بلحن وهي تراقص أيان، وتغمغم بكلماته وهي تستعيدها. ولحظت من ابتسام القوم حولها أن صوتها أعلى مما ظنت، فسكتت لتقابل باحتجاجات جميع الجهات، على نحو أصابها بحرج وهلع.

وطلبت اليها سيدة طويلة شقراء ألاّ تكف. وأخذتها من ذراعها الى حيث وقفت مويرا:

«لم تقولي لنا إن هناك موهبة جديدة بيننا الليلة».

تمنت كاتريونا أن تنشق الأرض وتبتلعها، ولكنها تماسكت. كانت مويرا تبتسم ولكن بعينين باردتين.

«بصراحة، لم أكن أعرف. لكن ما دامت الفرصة قد سنحت للآنسة مويرا، فلا أظن أن في وسعنا حرمانها من الأداء العلني».

حاولت كاتريونا أن تعتذر، ولكنها قالت لها في شبه سأم أن روبي سيصاحبها على البيانو وبدأ الرجل يستعد بمقدمة لأغنية طلبتها منه، وهي أعرف أين أذهب. وامتقع وجهها تماماً وهي تواجه الحضور. كانوا قد ألفوا شبه دائرة، وجلست مويرا في طرفها بينما وقف جيسون خلفها وهي تسرّ له شيئاً، فانحنى نحوها وابتسم. كانت ساخرة. انهما يضحكان منها اذاً، و ينتظران أن تخفق وتظهر حمقاء أمام هذا الحشد، ولكنها ستريهما!

ورفعت ذقنها وأخذت تغني: أعرف أين أذهب. وأعرف من يذهب معي. أعرف من أحب. ولكن الغزال يعرف من سأتزوج».

اختارت الأغنية لأنها بسيطة ومعروفة، ولكنها أدركت وهي تغني كم تنطبق الكلمات على الموقف الذي هي فيه. وأضاف هذا الادراك الى صوتها عمقاً وهي تردد «البعض يقول إنه أسمر، ولكنني أقول إنه وسيم».

ولم تستطع أن تنظر اليه، ولكنها وزعت نظراتها على سائر الحاضرين، حتى

على جيربي الذي كان يلقي اليها بنظرات ملتهبة كانت تجدها محرجة في العادة. وعندما انتهت، دوّت القاعة بالتصفيق، وطلب منها بعضهم المزيد. فانحنت مبتسمة ولكنها أبت أن تغني ثانية. ولم تشارك مويرا في التصفيق، وانتظرت حتى جاءت كاتريونا إليها.

«أحسنت يا عزيزتي. هل هناك قطع أخرى ستعرضينها علينا الليلة؟»

وتركتها وانصرفت في إتجاه غرفة النوم، وقال روبي:

«لا تهتمي، لا يتسع المكان هنا كما تعلمين إلاّ لنجمة واحدة».

وأحاط بها القوم يهنئونها و يسألونها ان كانت تحترف الغناء. وتعبت من كثرة ما ترددت كلمة الشكر على لسانها فذهبت الى المطبخ وتناولت كوباً من الماء. ولحق بها جيربي وتقدم منها مبتسماً:

«ها أنت هنا. قلت لك مرة يا ترينا أنك ستكونين مشهورة على نحو مثير أتذكرين؟»

«نعم».

«وهذه الأغنية، كانت دائماً أغنيتي المفضلة. أتذكرين ذلك أيضاً؟»

كانت رائحة الشراب تفوح منه وهو ينحني نحوها.

«كلا. لم أنس».

بدأ في صوته العتاب:

«لا تغيظيني يا ترينا، انك تعرفين شعوري نحوك».

«أعتقد أنني بدأت أعرف».

قالت ذلك وهي تتطلع اليه وتدرسُ قسمات وجهه الوسيمة، واستطردت:

«انك تريد أفضل ما في العالم، زوجة غنية وفتاة صديقة الى جانبك. حسناً، ليس هذا ما أريده يا جيربي».

«ماذا تريدين اذاً؟ تريدين أن أنهي أمري مع هيلين حسناً، ربما أفعل ذلك، ولكن هذه الأمور تستغرق وقتاً، ولا يمكن أن تتوقعي».

«لا، لا يمكن أن أتوقع، ولست أتوقع».

ورفعت يدها الى عنقها وجذبت السلسلة، فتقطعت الحلقات الهشة، وتناولت السلسلة مع الخاتم ووضعتها في يده.

«لست أفهم».

«آه، ولكنك ستفهم، ستفهم...»

وجرعت ما بقي في كوبها من ماء، ولكنه قال ملحاً:

«انك متضايقة، وأعترف بأنّ لك كل العذر في ذلك. ولكنني سأعوّضك. إنّ هيلين بعيدة الآن، ولدينا فرصة لأن نتعارف من جديد».

«مسكينة هيلين، ولكن لا حاجة لأن نسبّب لها وجع القلب. انني أعرفك تماماً يا جيرمي، وأعرف نفسي أفضل من ذي قبل. والأمور الآن أحسن كما هي عليه، صدّقني».

أمسك بذراعها وهي تمرّ بجواره نحو الباب:

« تريناً، لا نستطيع أن نتحدث هنا فلنذهب انت وأنا فقط كما كان العهد مرّة من قبل. سنعود الى مسكنك و...»

«كلا... أرجوك... ارفع يدك عن ذراعي».

بدأ يقول في لهجة عدوانية:

«والآن اسمعي».

ولكن جيسون تدخل عندئذ قائلاً، وهو يستند الى الباب، ووجهه يحوم فيه الغموض:

«كلا اسمع انت. قالت لك أن ترفع يدك عن ذراعها».

فتح جيرمي فمه كأنه سيتحدث، وتطلّع بحدة الى الخاتم والسلسلة المحطّمة اللذين يقبض عليهما في يده، ثم استدار ومضى عبر الباب. وتراجع جيسون ليدعه يمر، وأمسك بالباب الذي كان يهتز بعنف وراءه. وكأنما تبددت فجأة فقاعة الأحلام التي كانت تضمّ كاتريونا، وعادت الى الأرض لتواجه الرجل الذي كان لديه العذر في أن يستاء منها، وكانت مضطرة على نحو ما الى أن تطلب منه معروفاً. قالت بعد أن تنحنحت بعصبية:

«أعرف ما تفكّر فيه».

«لا بد أن تكوني اذاً ذكية للغاية، فلست موقناً من ذلك أنا نفسي».

وتجاوزها وفتح باب الثلاجة، قائلاً:

«لم أكن في الحقيقة أتجسّس عليك أو أحميك من تودد ابن أخي المخمور. كنت أريد فقط بعض الثلج لشرابي».

«انني أحتاج لمساعدتك».

كانت تعلم أنها قالت ذلك بسرعة، ولكنه كان قد وضع الثلج في كأسه واتخذ طريقه عائداً الى الحفل، فربما لن تتاح لها الفرصة أو تجد الشجاعة من بعد لتفاتحه في الأمر اذا أخفقت في ذلك الآن.

لوى فمه بسخرية وهو يتطلّع إليها قائلاً:

«بالعكس، إن أحداث نصف الساعة الأخيرة، أثبتت فيما يبدو أن في وسعك أن تتدبّري أمرك تماماً بنفسك».

عرقت يداها فمسحتهما خلسة في ثوبها، وقالت:

«لست أعني هذا النوع من المساعدة، ان ما أطلبه ليس لنفسي في الحقيقة».

«لمن اذاً، لرجل أم لامرأة؟ أم أنا لا أبدو فطناً؟»

نظرت اليه في حيرة. كانت لهجته خفيفة، ولكن ثمة شيء وراء الكلمات لم تستطع أن تحدده. قالت وهي تفكّر في أندرو.

«حسناً، انه رجل على ما أعتقد، وان كان هناك أناس آخرون ضالعون في الموضوع».

«ومن هو؟»

كم هو غريب أن يسألها عن ذلك، وليس عن المساعدة التي تريدها. ولكنه يستمع إليها على الأقل، حتى وان لم يكن يعيرها انتباهه تماماً. كذلك فانه لم يوبّخها ساخراً على تلك الليلة كما كانت تخشى.

وبدأت تخبره عن المركز ومشكلاته. فصغى عابساً وهي تصف المؤسسة ونواحي قصورها، والفارق الذي يمكن أن يحدث بالنسبة الى عمل أندرو لو

جاءت النقود. هنا لفظ قاطعها:

«ولكن، ماذا يمكنني أن أفعل؟ لست عضواً في مجلس أوصياء المؤسسة. ولست أعرف أحداً من أعضائه».

هزّت كاتريونا رأسها واحمرّت وجنتاها:

«كنت أظن أن بوسعك ربما، أن تجعل أحداً يفعل لنا شيئاً. في التليفزيون.. تدله... أو شيئاً من هذا القبيل.... أنت تعرف أناساً كثيرين».

فأطلق فجأة ضحكة قصيرة متفجرة، وقال متعجباً:

«التليفزيون؟»

وهنا، فتح الباب فجأة وظهرت مويرا. قالت في صوت يقطر حرقة:

«فهمت. إنك تختلف مع نجمة حفلنا، أي أمكنة غريبة تختارها للقاءاتك الغرامية يا حبيبي! تنوي العودة الى الحفل، اننا مهجورون يائسون من غيرك».

قال وهو يرتشف كأسه متأملاً:

«صمتاً يا جميلتي، ان الآنسة موير تناشدنا بالنيابة عن جمعيتها الخيرية المفضلة».

«كم هو مؤثر! كان يجب أن تقولي شيئاً من قبل يا آنسة موير. كان بوسعنا أن نمرر قبعة بعد غنائك»

كانت الكلمات في حدّ ذاتها مهينة، ولكن اللهجة أيضاً تنفذ الى عظامها. فرفعت ذقنها وحاولت أن تبتسم بشجاعة.

«إنه لأمر مؤسف أني لم أفكر في ذلك. طابت ليلتك يا آنسة دين. شكراً لك على دعوتي الى حفلك، كانت تجربة مثيرة».

وبينما كانت تمر بجوارها، حرّكت مويرا ذراعها قليلاً فانسكب بعض الشراب الذي كان في كأس تحمله على مقدمة ثوب كاتريونا الأبيض.

«أوه، كلا!»

تطلّعت كاتريونا الى البقع في ثوبها من خلال دموعها. كأنّ كل شيء قد تحطّم فجأة... نداؤها الى جيسون، ثم هذا الثوب الجميل، هذا لأنها امتهنت

نفسها بدون نتيجة. كانت تعليقات جيسون المريرة تكشف بوضوح أنه لم يسامحها ولم ينس. أما الألم الذي كان يملؤها، فلم تكن له صلة بالمرة بكبريائها الجريحة.

بدأت تخطو كالعمياء الى غرفة الجلوس، ولكنه أمسك بذراعها قائلاً:

«سأصحبك الى البيت».

«كلا!»

حاولت أن تخلص نفسها، ولكنه قال:

«لا تجادلي. ولا تفتعلي مشهداً».

واعتذر لها في السيارة عما حدث. وأصرّ على إكمال الحديث الذي كانت تريده في مسكنها. وجلست محمرّة الوجه، بعد أن غيّرت ملابسها، على الطرف الآخر من الأريكة، على أبعد مسافة ممكنة وغطّت قدميها بطيّات الروب. أما هو فمدّ ساقيه الى المدفأة وأغمض عينيه. وبينما كانت ترقبه، غمرتها موجة من الاشتياق كانت تتغلب عليها. وأطالت النظر الى وجهه، وثبّتته على خطوط فمه، وارتعدت شفتاها ولانت عيناها وهي تذكر الأحاسيس التي أثارها فيها.

«كنت أظن انك تريدين الحديث».

أصابها حرج مفاجيء، عندما عرفت أنه يدرك نظراتها.

«أي مزيد يمكنني أن أخبرك به؟»

«كل الحقائق. يساورني شعور بأنك تخفين عني شيئاً. كل ما علمته هو أن المال موجود لتمويل هذا المشروع الخيري، حسناً لماذا لا يتم ذلك؟»

«لم يعد هناك مال كاف».

«هل هذا هو السبب الحقيقي، أم أنهم يمنعون المال عن المؤسسة، ربما بسبب الاحساس بأن هناك نوعاً من التبذير أو سوء الادارة؟»

هتفت باستياء:

«بالقطع لا! ان السيدة هندرسون قد توافق على العمل الذي يجري في المركز، ولكنها لا تنحدر الى مثل ذلك».

قال وهو يمد يده الى فنجانه:

«اه، السيدة هندرسون لا توافق اذاً. فلماذا لا تغلق المركز؟»

«لأنها بذلك تخون رغبات زوجها الراحل، وهي تعتقد أنّ المال الذي تركه سيكون كافياً بدون الحاجة الى موارد خارجية، ولكنه لم يكن يتصوّر ما يمكن أن يفعله التضخم».

«هذه عبارة تصلح للنقش على ضريح رجل خيّرٍ مثله. اذاً، فان الذي تحاولينه حقيقة هو طلب النجدة في آخر لحظة».

تطلّعت اليه في تحدٍ، وقالت:

«يمكنك أن تصوّر الأمر على هذا النحو».

«أستطيع أن أصوّره بقوّة أكبر. من المحقق أن في وسع هذا الفتى ميلتر الذي يدير المكان، أن يرى كيف تسير الأمور»

قالت كاتريونا وهي تدافع عن الفتى:

«ان لدى اندرو أموراً أخرى يفكّر فيها، الى جانب النقود»

«محظوظ أندروا أخبريني هل هو يعرف انك تطلبين مني مساعدة على هذا النحو؟»

«أوه كلا ان الفكرة فكرتي، ولم أقل شيئاً عن عمد تخوّفاً من رفضك. ولكنك ستساعد أليس كذلك؟»

رشف باقي قهوته ووضع الفنجان على المائدة، وقال:

«آسف يا كاتريونا لقد تركتُ عصاي السحرية في بذلة أخرى!»

وجدها تعضّ شفتها، فرفع يده في استسلام قائلاً:

«انني آسف. لقد كان هذا رداً عنيفاً، ولكنه صحيح. فليس هنالك حلّ فوري لهذه المشكلة. كل ما يمكن أن أعد به هو أنني سأفكر فيها، وأتحدث الى بعض الأشخاص. ولكنني أستبعد أي نوع من النداء المباشر. انّ ما قد تنتهي إليه ربما لا يكون مقبولاً تماماً. هل فكرت في ذلك؟»

قالت بحدّة:

«كل ما يهم هو أن يأتي بنتيجة».

«الغاية تبرّر الوسيلة اذاً. هذه وجهة نظر قاسية تأتي منك. هل الأمر يعنيك الى هذا الحد؟»

فكّرت كاتريونا في مينش النعسة الصامتة وهي تحتضن غيتارها بعينين فارغتين، وفكّرت في ليندا وطفلها وسائر الأشخاص الذين ربما كان المركز مأواهم الوحيد في عالم معاد.

«نعم، انه يعني الكثير بالنسبة إليّ».

وظنّت أنها سمعته يتنهد، ولكنها كانت مخطئة لأنها عندما نظرت اليه وجدته يبتسم مرة أخرى، تلك الابتسامة الساخرة المبهمة التي أقلقتها دائماً. تساءل في رقة:

«وفي المقابل؟»

هزّت رأسها بخفة، فتدلّى شعرها كنقاب حريري بينهما.

«لست أفهم».

نهض من جلسته وبدا في نصف الضوء المنتشر أطول مما كان من قبل:

«كنت أظن أنك الفتاة التي لا تحب أن تكون مثقلة بدين أو بالتزام ما. نعم، اذا فرجت بحل، فستكونين مدينة لي على نحو أكبر مما سبق. ولن يكفي الأمر هذه المرة القيام بعمل البيت يوماً واحداً. فما رأيك؟»

بلعت كاتريونا ريقها، وساد السكون فجأة في الغرفة حتى ظنّت أنها تسمع صوت قلبها يخفق بعنف. لماذا تتردد؟ كل عصب فيها، وكل نبضة في جسمها تحدثها عنه. ومع ذلك فليس على هذا النحو، مجرّد مقابلة عابرة. قد تريد المزيد، ولكنها عاقلة على نحو تدرك معه أنه ليس في وسعها أن تطلب القمر!

«حسناً»

قال ذلك وهو يستحثها بهدوء، فنهضت في بطء وهي تحكم حزام الروب حولها بأصابع مهتزة. ووقف ويداه الى جانبيه يرقبها وهي تتقدّم نحوه، ولكنه لم يحاول لمسها حتى وهي على بعد أشبار قليلة منه. وتوقفت متطلعة اليه في شك، تحاول

أن تقرأ وجهه الغامض، ثم قالت بصوت أجش:

«سأفعل أي شيء تريده»

مدّ يده ورفع الشعر المنسدل على وجهها، وربّت على عنقها وكتفها، وهمس:

«اتبعيني»

فرفعت وجهها في صمت، وانحنى عليها، ومسّ عينيها بفمه كخفقة ورقة متطايرة، ثم تحرّكت يده خلف شعرها وأمسك بمؤخرة عنقها وجذبها اليه بعنف، وقال هامساً:

«أترين تأثيرك فيّ؟»

وتحسّس عنقها، فلم يجد السلسلة، فغمغم قائلاً:

«لم تكوني بحاجة إليها»

فقالت بصوت مرتعش:

«لقد ارتديتها وقتاً طويلاً، وأشعر بالغرابة بدونها»

«ارتدي هذه بدلاً منها»

قال ذلك وعانقها، وهنا شعرت بتوتر يتصاعد في أعماقها. هذه هي النقطة التي لا عودة منها، وأفزعتها قلّة خبرتها وما قد تتعرّض له. فخلّصت نفسها من ذراعيه وابتعدت متعثرة وهي تحكم الروب حول جسمها كأنما تحمي نفسها، فقال وهو يعبث بشعرها:

« كاتريونا ما بالك يا حبيبتي؟»

قالت بصوت مرتعش مفعم بالتوتر، يبدو لها هي نفسها غير مألوف:

«لست، أدري، إنني... لا أستطيع»

ثم انهارت وغطّت وجهها بيدها، وساد سكون. وعندما غامرت أخيراً برفع رأسها، كان قد تحرّك بعيداً الى الجانب الآخر من المدفأة، ووقف يدخن سيكارة وينفث دخانها بعصبية.

غمرها الخجل، وألمها، واشتاقت فجأة الى الطمأنينة. فتحرّكت صوبه:

« جيسون؟»

فانفجر صائحاً:

«أوه يا إلهي. كلاّ»

وتراجع الى الخلف وهو يلقي بيده كأنه يمنعها عنه. وتوقفت كاتريونا وهي فزعة مذهولة، تستمع إليه:

«كلاّ ليس مرّة أخرى أشكرك. لا أدري تأثير سياسة المنع والمنح هذه من جانبك عليّ، لكنها تحرق أعصابي، فابقي بعيدة من فضلك»

« جيسون، أرجوك، انك لا تفهم»

«أفهم تماماً، انك لا تستطيعين أن تكوني ممتنة على نحو ملائم إلاّ اذا عرفت مدى التزامك. وأنت تشعرين الآن أنّ عرفانك بالجميل قد ذهب الى حدّ يكفي لليلة. حسناً، اعتبري كلّ الديون قد سدّدت بالكامل. انني لم أرغب أبداً من قبل بنظام التقسيط.. وفيما يتعلّق بالجنس، فانه مجرّد كارثة...»

«كلاّ»

كان عند الباب، يصلح سترته، ولكنها أمسكت بذراعه وحالت بينه وبين إدارة مقبض الباب، وقالت:

«يجب أن تستمع إليّ...»

تقوّس فمه في صبر نافد، وقال:

«لك اهتمامي كله...»

فتطلّعت إليه، وقد بدت عيناها منتفختين من الدموع، وقالت:

«تظنّ أنني... بمجرد... أن أغيظك... أثير فيك التوتر حتى تساعدني. ان هذا ليس صحيحاً. إنني أعرف انك تحدّثت عن كوني ملتزمة نحوك. ولكن ليس في وسعك أن تتصوّر أنني تركتك تعانقني لأنني أشعر بالتزام...»

«فلماذا اذا؟ أودّ أن أعرف ماذا كان شعورك، لو كان ثمة شعور»

كان أيسر شيء، عندئذ أن تصيح: لقد فعلت ذلك لأنني أحبك. كان فعلاً أسهل شيء، ولكنه أكثر الأمور استحالة. إنّ الشيء الوحيد المؤكد في هذا العالم الدوّار، هو أنه يجب ألاّ يعرف أبداً شيئاً عن هذا الحب الأحمق اليائس الذي أودعه فيها.

ولم تعرف أيّ الأمرين أشقّ عليها في التحمّل، سخريته أم رثاؤه!

قال يحفزها بصوت قاس:

«حسناً، لماذا؟»

حدّقت في السجادة بتعاسة، وقالت:

«لست أدري، لم يسبق أن لمسني انسان على هذا النحو، أو عانقني وقد أردت... ظننت...»

وضع يده تحت ذقنها واضطرّها الى التطلّع اليه. وقال:

«يا إلهي، ألم يخطر لك أنك تلعبين بالنار؟ أن هناك نتيجة واحدة لا مناص منها إذا أبدى رجل لفتاة مشاعر الشوق كتلك التي أبديتها نحوك؟»

همست قائلة:

«لم أفكر في بادئ الأمر، ثم عندما فكّرت، انتابني الفزع»

«فهمت. هل وجدتني عندئذ باعثاً على النفور، أم ظننت بمجرّد الظن انني وحش أناني لن أفكر كم أنت بريئة ومن ثم أكون رفيقاً معك؟»

صاحت وهي تلوي يديها في طيات ردائها:

«أوه... كلا!»

«ليس في وسعي اذاً إلاّ أن أخلص الى أنّ هناك سبباً آخر، سبباً تخفينه عني».

«نعم»

قالت ذلك في تعاسة، وهي تعلم أن في وسعه أن ينظر في عينيها فقط ليعرف الحقيقة المخجلة. قال في هدوء:

«ظننت ذلك. هذا يفسّر الكثير. ذلك المشهد في المطبخ مع جيري حتى دفعك الى أن تطلبي مني العون. لقد خدعتني لفترة. ظننت أنك تريدينني، في حين كل ما كنت تريدين، كان درساً في الحب! حسناً، اختاري في المرّة القادمة شخصاً آخر لتجاربك الصغيرة الساذجة».

أطلقت صيحة ألم لهذا القول، ولكنه مضى يقول بلا رحمة:

«التزمي العواطف السطحية فقط يا قرة عيني، مثل تلك الأغنية التي غنيتها

الليلة. ولكن دعي الحب بعيداً عن ذلك. إنه لحن أكثر طلاقة من القيود التي فرضتها على نفسك، موسيقياً وعاطفياً».

لو أنه صفعها، لما كان الألم أكبر مما تشعر. هكذا كانت تفكّر جامدة والباب يغلق وراءه. وعادت الى الأريكة وانحطّت عليها. كانت الوسائد المجعدة لا تزال تحمل انطباعة جسمه، فأطلقت أنّة صغيرة ثم دفنت وجهها في الوسائد وبكت كما لم تبك أبداً من قبل في حياتها!

٦ ـ أوقات متوترة

كانت دموع كاتريونا قد جفّت، وظلّت متيقظة تماماً بعد ذلك بساعة، عندما دخلت سالي غرفة النوم على أطراف أصابعها. وقالت وهي تطفئ المصباح القائم على خزانة صغيرة بين الفراش:

«يسرني انك لست نائمة. ماذا حدث في منزل مويرا؟ يكاد الجميع يقتلهم الفضول. وما يتواتر بينهم هو أنها قذفتك بكأس من الشراب».

قالت كاتريونا وهي تتنهّد، وتعترف بما وقع:

«لقد سكبت عليّ كأساً. ولكنني لا أعرف اذا كان ذلك عمداً أو لم يكن».

«حسناً، اذا لم يكن هذه المرّة فسيكون المرّة القادمة! وقد تستخدم البنزين عندئذ على الأرجح. لقد استضافتك لتسدي لها يد العون نظير ذلك، فاذا بك تجعلين من نفسك نجمة الحفل. ثم تزيدين الطين بلّة بعد ذلك فتخرجين مع الرجل الماثل في جنانها. لم يسبق لي أن رأيتها في هذه الحالة من الهياج. ولست أحسد جيسون على محاولته الصلح معها الليلة، ولكن لا شك أنّ له وسائله».

ظلّت كاتريونا راقدة بلا حراك تحاول استيعاب ما سمعته. وتساءلت أخيراً وقد جف حلقها:

«هل... عاد الى الحفل اذاً؟»

كانت سالي قد دخلت الفراش بعد أن غيرت ملابسها واطفأت النور. قالت:

«بالطبع، إنّ دعوته لا بدّ تتضمّن تناول الافطار أيضاً».

قالت كاتريونا بصوت بالغ الهدوء، برغم الألم الذي كان يمزّقها:

«أظنّ ذلك».

قالت سالي وهي تسوّي وسادتها:

«لا يمكن لأحد على الأقل أن يعرف ما يراه منهما في الآخر. ولكنني موقنة من أنه ليس الزواج، فحتى مويرا تدرك أنها تضيّع وقتها. لهذا فهي ترضى بما يمكن أن تحصل عليه منه».

ثم تثاءبت قائلة:

«طابت ليلتك يا حبي، أتمنى لك أحلاماً سعيدة».

قالت كاتريونا بصوت غير مسموع تقريباً:

«طابت ليلتك».

وكانت لا تزال ممتقعة الوجه مثقلة العينين عندما عادت الى العمل في المركز. وأبدت جين كما أبدى أندرو دهشتهما لمظهرها الواهن، فقبلت منهما فنجاناً من القهوة وقرصاً من الأسبرين، ولكنها رفضت اقتراحهما بأن تعود الى المنزل. وفكّرت في أن ما تريده الآن هو العمل، تريد شيئاً يشغلها ويثير في جسمها التعب على نحو يمكّنها من النوم ليلاً.

وكانت الأنباء في المركز محزنة، فقد تلقى أندرو رسالة من السلطات المحلّية بأنّ أحد مفتشي المباني سيزور المنزل ليتفقده خلال الأيام القليلة القادمة.

«هذه يمكن أن تكون الضربة الساحقة. فقد يحكمون على البيت بالاغلاق ما لم تتم بعض الاصلاحات الحيوية فيه».

ظلّت كاتريونا صامتة. وسرّها انها لم تثر الآمال في نفس أندرو بإبلاغه من قبل أنها تنوي أن تطلب المساعدة من جيسون كان من الفظاعة أن تضطرّ الى الاعتراف بفشلها، ومن المستحيل أن تقرّ ذلك. قال أندرو مواصلاً حديثه:

«سيجتمع مجلس الأوصياء هذا الأسبوع. وأضطرّ للحضور لابلاغهم بدقائق الموقف، وهذه مهمّة لا أعتزّ بها».

«وماذا ستفعل إذا اقتضى الأمر بإغلاق المركز؟»

هز كتفيه قائلاً:

«أعود الى عملي في الأبرشية على ما أعتقده.

تساءلت وهي ترقبه بإمعان، وتجد وجهه يحمرّ

« وجين؟»

قال في ارتباك:

«إن لديها مؤهلاً عالياً كما تعلمين، ولن تجد صعوبة في العثور على وظيفة أخرى حتى اذا... أعني... اذا لم».

وتلاشى صوته، بينما انحنت كاتريونا على آلتها الكاتبة وهي تخفي ابتسامتها.

وكان النهار حافلاً بالعمل كما كانت تأمل. وظلّ التليفون يرنّ باستمرار، كل المكالمات من أخصائيين اجتماعيين يطلبون المأوى للحالات التي اجتمعت لديهم. ووصل وافدون جدد، من بينهم أسرتان بأطفالها الصغار.

كذلك جاءت الشرطة لتصطحب شاباً وصل في عطلة الأسبوع بعد فراره من بورستال. ثم جاء البناء وأعلن أن الترميم الذي يجري للسطح لم يعد كافياً، والمطلوب هو سطح جديد تماماً.

وجاءت السيدة هندرسون، وأغلظت لكاتريونا القول، لأنها وجدتها مع جين، ولم تجدها في عملها بالمكتب، فسبقتها كاتريونا الى هناك وقد التهب وجهها. وكان اندرو جالساً الى إحدى المائدتين، فأرسل إليها نظرة تعاطف مشوبة بتحذير، فكتمت صيحة الاحتجاج التي كانت ترتعش على شفتيها. وجلست الى آلتها الكاتبة ووضعت فيها الورق والكربون بجدّ مبالغ فيه.

وقف أندرو يرحّب بالسيدة هندرسون ويقدم لها مقعداً.

«حسناً يا سيد ميلنر. هل فكّرت في الاقتراح الذي قدم إليك؟»

قال أندرو وهو يعاود الجلوس في كرسيه:

«بصراحة لم أفكر في شيء آخر منذ مكالمتك التليفونية. كان النبأ كوقع الصاعقة».

«وهل أنت موقن أنك لست المسؤول؟»

«موقن تماماً أوه. لقد سمعت عن البرنامج بالطبع، ولكنني لا أدري لماذا يريدون إظهار المركز فيه».

«بالعكس، انني أعتبر أنه كان يجب من زمن الاشادة بكرم زوجي الراحل على نحو ما. فمن المحقق أنه لم يلق الاعتراف الذي يستحقه في حياته».

«لا ولكن اسمحي لي، هل هذا هو هدف البرنامج؟ ان ما فهمته هو أن المركز نفسه في نشاطه وأثناء العمل، هو الذي يريدون تصويره».

جلست كاتريونا كأنما قدّت من حجر، والتفتت الى اندرو وفي عينيها سؤال صامت، فهزّ لها رأسه قائلاً:

«هذا صحيح يا كاتريونا برغم أنه أمر لا يصدّق. لقد إتصل بالسيدة هندرسون منتج تليفزيوني يريد تصوير المركز في فيلم تسجيلي قادم».

«هذا...هذا رائع»

قالت كاتريونا ذلك بطريقة آلية. لم تسأل أي محطة تليفزيون، أو حتى أي برنامج، فقد كانت تعرف. وقالت السيدة هندرسون في لهجة لاذعة:

«أرجو ألا تتخيّلي يا آنسة موير انك ستظهرين في تليفزيون. إن الصورة هي المهمة كما قال لي الشاب الذي حدّثني. وأريد أن يكون عملنا، هو ذلك العمل الخيري الجاد لمساعدة المحتاجين، ومن المحقق أنني لا أريد أن أعطي انطباعاً بأنّ هذه مجرد دار ضيافة تنتشر فيها الأزياء»

نظرت كاتريونا في دهشة وبدأت تكتب على الآلة وهي تشعر كأنها في حلم. لم يكن مصادفة ما حدث. لا بد أنه جاء من جيسون لورد. ومع ذلك فمن الصعب أن تصدق. قالت لنفسها مرّات كثيرة منذ تلك الليلة التي كانت كالكارثة: لم يكن في وسعها أن تتوقع رؤيته أو تسمع عنه بعد ذلك. واستبعدت تماماً فكرة مساعدته للمركز. وشعرت بأنها وحدها الملومة في ذلك، وأنه كان يصعب أن تدرك أن أي قرار شخصي من جانبها سيكون مآله سوء الفهم، وانه لا أحد يعطي شيئاً مقابل لا شيء، في عالم جيسون المفعم بالشك. فأي تفسير هناك

هذا التغيير! إنها لا تجد تفسيراً.

قال أندرو:

«إنّ ما يحيّرني هو كيف توصلوا إلينا».

قالت السيدة هندرسون، وهي تنهض وتنفض التجعدات عن ثوبها:

«انني مثلثة أكثر مني حائرة. هذا يدلّ على أن جهودنا لا تمرّ بدون أنتباه أحد ومن يعرف يدرك أننا نقوم بمساهمة طيبة في سد بعض الثغرات التي تركتها الخدمات الاجتماعية والحكومية».

نغل أندرو قليلاً وهو يسمع نفس كلماته تردّ اليه من فم غيره. ثم تنحنح قائلاً:

«وعلى ذكر سدّ الثغرات، كان البناء هنا هذا الصباح، وترك هذه التقديرات الخاصة بالسطح. أخشى أن النفقات كثيرة، وكنت أنوي ارسالها الى مجلس الأوصياء الليلة، ولكن ما دمت هنا».

تناولت السيدة هندرسون الورقة منه، وألقت عليها نظرة لامبالية. ثم قالت:

«سأعمل على وضعها في جدول أعمال اجتماع هذا الأسبوع. ولكن كما حذّرتك يا سيد ميلر، لا أستطيع أن أبسط لك أي أمل في امكان اجازة مشروع من هذا النوع».

«كنت أظن أنه بالنظر الى أن كاميرات التليفزيون ستنزل علينا عما قريب».

ولكن السيدة هندرسون قاطعته قائلة في برود:

«لن يهتموا أبداً بتصوير السطح. ثم لا أريد أن يكون للمركز مظهر مضلّل من مظاهر الرخاء».

«لا أظنّ أنّ أحداً سيحسبه فندقاً فخماً».

قالت السيدة هندرسون وهي ترتدي قفازها:

«أمل ذلك. لقد فهمت أنّ المنتج أو مساعده سيزورك في الأيام القليلة المقبلة لاجراء ترتيبات التصوير، وأنا موقنة أنك ستتعاون معه».

«سأفعل كل ما في وسعي بالطبع».

واصطحبها الى الباب وخرجا معاً. ظلّت كاتريونا وحدها مع أفكارها المضطربة. وكان أول شعور ساورها هو أن تقدم استقالتها، وبذلك تتجنب الألم والمهانة اللذين ستضطرّ اليهما عند مواجهة جيسون. ولكنها أدركت أن هذا الموقف سيكون ظالماً لأندرو. فاذا ذهبت، فلا يوجد ضمان بأن يحلّ أحد محلّها، بل إنّ سلوك السيدة هندرسون يشي بعكس ذلك. وأندرو لديه ما يشغله من غير الاضطرار إلى الكتابة على الآلة الكاتبة وإمساك دفاتر المكتب. البديل الوحيد اذاً هو أن تبدو غير متطفّلة عند تصوير البرنامج. ولن تجد صعوبة في أن تظلّ بعيدة عن طريقه. ثم أنه لن يرغب في رؤيتها كما لا ترغب في رؤيته. هكذا قالت لنفسها في تحدّ وهي تحاول في الوقت نفسه أن تتجاهل شعور الألم الذي صحب هذا الخاطر على غير إرادة منها.

وأرغمت نفسها على أن تركز ذهنها في عملها، وانشغلت بالكتابة عندما فتح باب المكتب ودخل أندرو وجين. فقال لها مداعباً:

«انظري إليها! إنها لا تهتز حتى لفكرة الظهور في التليفزيون، وها هي تعمل بغير صعوبة أو تردد».

تنهدت كاتريونا في داخلها. ربما أراحها أنّ مظهرها الخارجي يشي بالهدوء. كذلك حدث للأقدار أنها لم تشر لأندرو من قريب أو بعيد بإمكان أن يكون لها ضلع في قرار تصوير المركز. كان من الممكن أن تساورها أفكار عن فضول أندرو وجين فينهالا عليها بالأسئلة، وأن تكون هناك أسئلة تبعث على الألم عند الرد عليها، وايضاحات وتفسيرات تدعو لاحراجها. وذكّرها صوت بداخلها بأنه لا مناص من هذه الايضاحات والتفسيرات متى جاء جيسون وأصبح واضحاً أن كلاً منهما يعرف الآخر. ولكن ربما في وسعها متى حان ذلك الوقت أن تجد لنفسها درعاً يحميها. أما الآن فهي تحس بأنها عرضة للخطر تماماً.

وعادت باهتمامها الى أندرو وجين، وكان حديثهما قد تحوّل الى البيانو قال أندرو:

«أعتقد أننا يجب أن ننتشه في حفل ما. ماذا ترين يا كاتريونا. هل تستطيعين تنظيم هذا الحفل لنا؟»

«ليست هذه بمشكلة. ولكن هل سيشارك الجميع في الحفل؟»

قالت جين:

«ستشارك السيدة لامب بالطبع. لقد عثرت على بعض نوتات الموسيقى القديمة. ومنذ ذلك الوقت وهي تتدرب. ألم تسمعيها؟»

«كنت أفكر في الحقيقة في ميتش. هل نطلب منها أن تشترك؟»

قال أندرو:

«لا ضرر في ذلك على ما أعتقد. ولكنني أشك في أن تتلقى رداً».

قالت جين وهي تتنهد:

«لا بد أنها تهتمّ بالموسيقى. وإلاّ فلماذا القيثار؟»

قال أندرو وهو يعبس قليلاً:

«أود أن تكوني على صواب. ولكنّ أحداً لم يستطع حتى الآن أن يقنعها بأن تمسّ ولو وتراً واحداً منذ جاءت هنا. وأحياناً أتساءل إن كان يخصّها، أو حتى ان كانت تعرف العزف عليه».

كانت كاتريونا تتساءل عن الشيء نفسه. فقد راقبت ميتش عدة مرات عند لقائها في الاسبوع السابق، وبالرغم من أنّ الفتاة كانت تحتضن القيثار وكأنه شيء ثمين بالنسبة إليها، لكنّها لم تمسك به على طريقة الموسيقيين. وكان هذا لغزاً لكاتريونا وهي تذكر وجه ميتش الشاحب المكروب وما يحيط بها من جوّ عدائي.

ورحّبت سالي بفكرة الحفل بحماس عندما أبلغتها بها كاتريونا وهما تتناولان الطعام في ذلك المساء.

«دعيني أعرف متى ستكون، وسأحضر وآتي معي ببعض الأصدقاء. ان أيان وباربارا كلاهما يغنّي. والباقي يستطيع أداء بعض القطع ارتجالاً. وهذا كله يمكن أن يكون شافياً».

تساءلت كاتريونا بسرور:

«ممّن؟»

تضحكت سالي وهي ترقب كاتريونا قائلة:

«الجميع! انك تبدين وكأنك في حاجة الى بعض العلاج أنت نفسك يا عزيزتي ما الخبر؟»

«لا شيء».

«على رسلك، انني لن أتطفّل، ولكنني سأفعل! أنت لا تضعين عينيك على جيريمي لورد. أليس كذلك؟»

شهقت كاتريونا واحمرّ وجهها.

«جيريمي! أوه، كلاّ حقيقة ليس شيء من ذلك».

«الأمر اذاً أسوأ مما ظننت، فالوقوع في هوى جيريمي مثل الاصابة بالانفلونزا في رأيي، محنة صغيرة من محن الحياة السخيفة طالما بقيت، وهي لحسن الحظ لا تبقى، ولكن، اذا لم يكن جيريمي فلا بدّ أن يكون غيره اذاً. كنت آمل أن يكون أيان».

ابتسمت كاتريونا في فتور، وقالت:

«انه... لطيف جداً».

لوت سالي قسمات وجهها بطريقة فكاهية، وقالت:

«هذا أشبه بحكم منه برأي. مسكين أيان. انه يستحقّ ما هو أفضل من ذلك. ولكنّ شيئاً ما يخبرني أن هذا ليس الوقت المناسب للأسرار بين الصديقات. أتشعرين بأن جراحك لم تندمل؟»

أومأت كاتريونا برأسها، وهي لا تثق حتى بكلماتها إن تحدثت.

«سنغيّر الموضوع اذاً. ما رأيك لو جاءت فتاة ثالثة وأقامت معنا؟»

تحوّل ذهن كاتريونا غضباً عنها:

«ثالثة؟ وأين نقيم؟»

«قد يدهشك الأمر ولكن يوجد مكان في غرفة النوم اذا نقلنا خزانة الأدراج. إن

جولي في النادي تبحث عن مكان جديد، ويودّ الانضمام إلينا. سيساعدنا ذلك في سداد الايجار، كما أنها ستكون بصحبتك عندما أرحل في جولة تمثيلية قريباً. ولكنني أبلغتها أنه لن يتمّ شيء إلاّ بعد مشاورتك».

«وأنا ليس لدي اعتراض».

«حسناً، سأبلغها اذاً... جاء روبي الى النادي وقت الغداء اليوم، وكان يبحث عنك، إنه هو الذي صاحبك على البيانو في حفل موريًا. وكان يثني عليك أمام بعض معارفه من الفنانين. ويبدو أنه يستطيع ترتيب تجربة للأداء لك. وقد يعني هذا حصولك على وظيفة في ناد يساهم فيه، حيث يستخدمون المواهب الجديدة».

«ولكنني لا أعتقد انني أريد ذلك».

«لا تكوني مجنونة يا عزيزتي. ربما تكون هذه فرصتك الكبرى. فهو يعتقد أنّ لديك صوتاً حقيقياً في طريقه الى التضج».

هزّت كاتريونا رأسها قائلة:

«لا أخدع نفسي يا سالي. لقد كنت مشهورة في موطني. ولكن الفتيات المغنيات هنا في لندن كثيرات العشرة بقرش. ولذلك سأبقى في وظيفتي وأغني لمجرد اللهو أو للألم. انني أعرف من أحب، ولكن الغزال يعرف من سأتزوج».

أخرجت سالي من حقيبتها بطاقة سلّمتها إليها قائلة:

«في أي حال، هذا هو رقم تليفونه، اذا ما غيّرت رأيك».

تناولت كاتريونا البطاقة ودسّتها في كيسها قائلة:

«لا أظنّ ذلك».

«انك بالقطع تلتزمين بمبادئك. ولو كانت لي مبادئك، لظللت أتعثّر فيها باستمرار».

«إنّ مبادئي ليست دائماً مريحة، ولكنها أحياناً كل ما أملك».

مرّ اليومان التاليان في تثاقل، وشعرت كاتريونا بالتوتر طيلة وجودها في المركز. كان من المحتم أن يفكّر الجميع في الزيارة المرتقبة لطاقم التليفزيون وأن يكون ذلك محور الحديث، ولم يرتح بالها على الاطلاق. ووجدت نفسها تتطلّع من النافذة في كل وقت تقف فيه سيارة بالخارج، فلامت نفسها على سخفها.

وعندما وصلت سيارات التليفزيون، كان ذلك بمثابة خيبة أمل، لأن الرجل الطويل الذي تترقّبه عيناها غريزياً، لم يكن بين أفراد الطاقم من المصوّرين والمسجلين وغيرهم، الذين دخلوا المبنى محمّلين بالمعدات. وكان الرجل الذي يرأسهم اسمه غارفيلد لوكاس، وبرغم أن كاتريونا استرقت السمع لحديثه مع أندرو فانها لم تسمع ذكراً لاسم جيسون لورد إلا أنها تيقّنت من أن الفيلم الذي يصوّرونه عن المركز سيظهر في برنامج «هنا والآن» الذي ينتجه ويقدّمه.

قال لوكاس لهم:

«يتضمّن الفيلم مناقشة حيّة في الأستوديو أمام جمهور من المدعوين. ونأمل أن يحضر ممثلوا منظمات خيرية أخرى، ونزلاؤكم وموظفوكم. وسنجري حديثاً مع السيدة هندرسون بالطبع».

ووضع يده على كتف أندرو وقاده الى الخارج وهو يواصل الحديث معه.

وبعد دقائق أطلّ وجه جين من الباب، وقالت وهي تجلس في مقعد:

«انهم يتعرّفون على المكان. وآمل أن تتحمّل الأسلاك، اذ يخامرني شعور بأنهم عندما يوصلون معداتهم بالكهرباء، قد تنفجر جميعاً الى عنان السماء».

تنهّدت كاتريونا من خلال أنفاسها. سوف تضطرّ إن عاجلاً أو آجلاً الى الاعتراف بدورها في كل هذه الفوضى، التي كانت أبعد ما تكون عن نداء أمسية الأحد الذي كانت تتخيّل ظهوره أصلاً في التليفزيون.

وجاء أندرو وهو يبدو منهكاً، وقال:

«أهناك إمكانية لصنع القهوة يا جيني. فربما يشربون غالونات منها».

«سأتحرّى الأمر».

وخرجا معاً. ومضت كاتريونا في كتابة حسابات المركز لاجتماع مجلس الأوصياء في اليوم التالي. واستغرقت في عملها على نحو لم تسمع معه أحداً يدخل الغرفة، ولم ترفع عينيها إلاّ تحت الاحساس بأن أحداً يراقبها. كانت ميتش تقف خلف الباب، والقيثار بين ذراعيها. وتبدو شديدة الشحوب، وعينيها فزعتين. لعقت كاتريونا شفتيها. فهي لم تقدّر أثر الكاميرات وطاقم التصوير على

فتاة مثلها عندما بدأت حملتها الدعائية. قالت، وهي تحاول أن تبدو تلقائية:
«هل جئت هنا طلباً للهدوء؟ انني لا ألومك. هناك مقعد بين خزانتي الملفات».
وأخرجت الأوراق من الآلة الكاتبة وبدأت تراجعها بدون أن تنظر الى ميتش. ولكن حركة ما أنبأتها بأنها جلست. وساد الصمت بعض الوقت، ثم قامت كاتريونا الى خزانة الأدوات الكتابية لاحضار علبة جديدة من الملفات، فوجدت ميتش جالسة تحدق في الأرض، ويداها مضمومتان الى ركبتيها، والغيتار بجانبها مستنداً الى إحدى الخزانتين. فتوقفت قائلة:
«هذا غيتار اسباني حقيقي أليس كذلك؟»
أومأت لها ميتش بحركة خفيفة جداً من رأسها.
«وأنا أملك غيتاراً أيضاً. ولكنه لا يضارع غيتارك في الجودة، هل يمكن أن أنظر إليه عن كثب؟»
بدت وكأنها تقف على حافة هاوية تنتظر هبّة ريح لتسقط فيها. وتذكّرت أن ميتش انساقت مرّة الى العنف بسبب الغيتار.
مرّت فترة سكون طويلة، ثم تلك الهزة الخفيفة التي لا تكاد تميّز مرّة أخرى. وشعرت كاتريونا وهي تمضي لالتقاط الغيتار وكأنها تمشي على قشرة بيض، ومدّت يدها الى أوتار الغيتار تجرّبها، وما لبثت أن جفلت:
«إنه يحتاج الى ضبط يا ميتش. من العار أن يظلّ هذا الشيء الجميل في هذه الحالة. أتعرفين كيف تضبطينه؟»
وجدت ميتش تحدق فيها فلم تتحرك.
«هل أضبطه لك؟»
وبدأت تضبطه، ثم مرّت بيدها على الأوتار، فخرج النغم جميلاً. وأعادت الغيتار الى حيث كان بجوار ميتش.
«سنقيم حفلاً هنا في إحدى الليالي. فلماذا لا تأتين بالغيتار، سيحب الجميع أن يسمعوك وأنت تعزفين عليه».
«كلا».

أطلقت ميتش الكلمة في لهثة أنفاس، وحملت غيتارها وخرجت الى الباب، لتجد هناك من يسدّه، وقال جيسون وهو يفسح لها الطريق:
«أرجو المعذرة».
وراقبها وهي تصعد الدرج حتى أختفت، ثم التفت الى كاتريونا قائلاً:
«انني أبحث عن مستر ميلر».
بلعت كاتريونا ريقها، وقالت:
«سا... سأذهب وأجده من أجلك».
«أشكرك».
وخلع معطفه الجلدي وعلّقه على ظهر مقعد، ثم مضى الى النافذة وأولاها ظهره. وفكّرت، وهي غير مصدّقة، في أنهما يمكن أن يكونا غريبين. ولوهلة مفزعة ظنّت أنها ستنفجر باكية، ولكنها تماسكت ورفعت ذقنها. اذا كان هذا هو ما يريد، فلا بأس!
ووجدت أندرو في المطبخ، فأبلغته أن منتج البرنامج ينتظره في المكتب، وساعدت جين في تقديم القهوة وشرح ما يحدث للنزلاء. وكانت السيدة لامب تبدو عدوانية.
«لم يسألنا أحد اذا كنا نريد ذلك. ولن أسمح بمعاملتي كحيوان في الحديقة».
واستغرقت عملية اسكات المخاوف بعض الوقت، وعندما عادت كاتريونا على مضض الى المكتب، كان جيسون قد انصرف. ولكنّ شعورها بالارتياح لم يدم. فقد أبلغها أندرو أن جيسون سيعقد بعد الظهر اجتماعاً لبحث سيناريو الفيلم، وطلب منه إن كان في وسعه أن يقدم له العون في مسائل السكرتارية، لأن سكرتيرته مريضة.
«قلت له انني متأكد أن كل شيء سيكون على ما يرام. هل تعتقدين أن في وسعك المسايرة يا كاتريونا؟ انه يبدو رجلاً شديد الوطأة في العمل».
«ليس لي خيار آخر، أليس كذلك؟»
وشعرت بتوتر عندما اجتمعوا الى إحدى المائدتين في المكتب بعد الظهر، وشرح

جيسون بإيجاز شكل الفيلم وسأل أندرو ان كانت لديه إضافات أو انتقادات، وتبيّن أن التركيز سيكون على النزلاء، ودور المركز في حياتهم وقت الأزمات الشخصية. وكان هذا أبعد ما يكون عن تكريم ذكرى السيد هندرسون على نحو ما تصوّرت أرملته!

وقال جيسون:

«وبالاضافة الى ذلك، ستكون هناك بالطبع الأزمة الخاصة بشؤون المركز».

فردّ أندرو قائلاً:

«لا أحسب أنه يمكن أن أصفها على هذا النحو».

«أوه! وكيف تريد أن تصفها بالضبط؟ لقد أجرينا بعض التحرّيات يا سيد ميلتر وتحدثنا الى بعض الأوصياء الآخرين غير أليس هندرسون. وكذلك الى بعض المسؤولين في المجلس المحليّ. وكلهم تتفق آراؤهم على أن أيام المركز معدودة ما لم يتغيّر الموقف جذرياً، وعاجلاً».

حدّقت كاتريونا في مفكرتها ورأت أمامها رموز الاختزال كأنما تسبح بلا معنى. ماذا قالت له من جرّاء التهور في تلك الليلة؟ إنّ الغاية تبرّر الوسيلة؟ وهي لم تعد واثقة من ذلك الآن.

قال أندرو معترفاً:

«هناك مشكلة بالنسبة الى المال».

فردّ جيسون في رفق:

«أظنّ أنها أكثر من مشكلة. فالمؤسسة مفلّسة تقريباً على ما علمت. وقيل لي أيضاً أنه كان من الممكن القيام بعملية إنقاذ لجذب مزيد من المال منذ وقت طويل، لولا عناد السيدة هندرسون نفسها».

نظر إليه أندرو بثبات، وقال:

«أظنّ أن هذا يفسّر الاهتمام المفاجيء لوسائل الاعلام بشؤوننا. كالجوارح التي تنتظر حلول الموت».

بادله جيسون النظر بسخرية، وقال:

«ماذا تتوقع يا سيد ميلتر؟ إنّ هذا المكان والعمل الذي تقوم به ليسا فريدين. كان يمكن أن تركّز الأضواء على عشرات من الأماكن الشبيهة. ولكننا اخترناك. ألم تسأل نفسك لماذا؟ أنت تعرف الموقف أفضل من أيّ انسان آخر. ولعلّه حان الوقت لتواجهه بواقعيته».

ثم نظر في المفكرة أمامه، وقال:

«بالطبع. ان الوقت لم يفت بعد. اذا أردتنا أن نذهب».

أرسلت كاتريونا الى أندرو نظرة فزعة. ربما لا يحبّ زاوية العرض التي سيأخذ بها البرنامج. ولكن هذه قد تكون آخر فرصة لهم لاثارة بعض اهتمام الجمهور بمحنتهم. فاذا رفض أندرو العرض، فلا أمل بعد ذلك للمركز أو للاشخاص الذين يعتمدون عليه.

ولكن أندرو هزّ رأسه ببطء قائلاً:

«لا أظن الخيار خياري. إننا في حاجة الى أية مساعدة نحصل عليها، سواء ارتهنت بشروط أولاً، وسوف نمنحك كل التسهيلات».

«شكراً. يحسن أن نبدأ اذاً».

شعرت كاتريونا بإرهاق بدني وعقلي وهي تخرج آخر الأوراق من آلتها الكاتبة بعد ذلك بساعتين. كان الاجتماع قد اقتضى أن تبذل المزيد من القدرات بدون أن يتنازل لها أحد عن شيء، بسبب افتقارها الى الخبرة. ومع ذلك فقد جاهدت لأن كبرياءها لم تسمح لها بالتسليم تحت نظرات جيسون الساخرة. وشعرت بأنّ السرعة التي جرت بها المناقشة، وما تخللها من تعليقات كانت تلقى إليها ببعض الاهمال الذي ربما قصد به إظهار عجزها. ولكن هذا جعلها أكثر تصميماً على ألاّ تقبل منه التمهّل أو تكرار شيء قاله.

انتفضت عندما وجدت يده تمرّ من فوق كتفها الى الأوراق.

«هل انتهيت؟»

لم تكن قد سمعته يدخل. وأقلقها قربه وهو يقف خلفها يقرأ الأوراق.

وتحركت قليلاً بمقعدها حتى لا يحدث بينهما اتصال بدني معذّب. ونظرت اليه عندئذ بغير إرادة منها، فعرفت من حركة في فمه أن تصرّفها لم يذهب بغير ملاحظة منه. وقال وهو يلقي بالأوراق على الطاولة.

«كتابة منمقة. سآخذ أول صورة معي الليلة. وفي وسعك أن تعطي نسخة للوكاس»

«بالطبع».

نظر الى ساعته قائلاً:

«حسناً، عندي بعض الرسائل عندما تكونين حاضرة».

وبدأ يملي حتى قبل أن تفتح مفكرتها وتتناول قلمها. وفكّرت بغضب في أن ما يحدث هو اختبار للقدرة على التحمّل، وليس إملاء عادياً. وقال بتلقائية بعد أن فرغ.

«أود إرسال هذه الرسائل الليلة. ويجب ألاّ تستغرق منك وقتاً طويلاً».

اختلست كاتريونا النظر الى ساعتها، فوجدت أن الوقت تجاوز موعد خروجها من المكتب. فكتمت تنهيدة وهي تجمع الأوراق.

«هل أعطّلك؟ ولكن رئيسك وعدني بكل التسهيلات و...»

«لا بأس».

قاطعته بهذه العبارة وهي تضع الأوراق في الآلة. وأرغمت نفسها على التركيز فيما بين يديها، على إرادة منها بتجاهل حقيقة أنه سحب كرسياً ووضع قدميه على طرف مائدتها. ولكن إدراكها لنظراته المدقّقة إليها جعل أصابعها تتعثر، واحمرّ وجهها من فرط الحرج وهي تضع في الآلة ورقة جديدة. وأخيراً قالت:

«هل تسمح بأن تكفّ عن النظر إليّ؟»

«أنا آسف... ولكن ديان ليست على هذه الدرجة من الحساسية. فقد اعتادت على أنفاسي تحيط بعنقها».

ظلّت كاتريونا صامتة، وتساءلت في مرارة هل هذا يعني أن ديان على درجة متساوية من الود معه، ومع ذلك تقدر على جعل العلاقة علاقة عمل فقط

في المكتب؟ ان كان الأمر كذلك، فهذا يتطلّب درجة من التمرّس لا تملكها وعذّبها إدراكها المستمر لرجولته البادية، ولكنه ما لبث أن نهض قائلاً:

«سأبحث عن جين وأرى ان كان بالامكان إعداد بعض القهوة، هل تريدين قهوة؟»

تجاهلت مطالب معدتها الخاوية وهزّت رأسها، فقال:

«فهمت. لا بد أن أخرج وأظلّ في الخارج».

وكانت نبرته ساخرة. وتوقّف كأنما ينتظر رداً انتقامياً من جانبها. ولكنها لم ترد، وسمعت بعد قليل الباب يغلق وراءه. وعندما اكملت الرسائل وأعدّتها لتوقيعه لم يكن قد عاد بعد، فخرجت تبحث عنه. ووجدته في المطبخ جالساً يتحدث مع جين وبعض النزيلات، ومنهم السيدة لامب. ومن نظراته الجذلة، وطريقة حديثه، فهمت جين بأن كل ما كان يساور السيدة لامب من مشاعر الاحساس بأنها حيوان في الحديقة قد ولّى. ولم تدهش كثيراً عندما أنبأتها السيدة لامب بأنها ستكون وأسرتها موضوع حوار متعمّق، قرّر جيسون إجراءه في البرنامج، وغمزت لها جين بعينها فابتسمت لها. كان من المحتم أن ينتصر جيسون، وعليها أن تكون مسرورة لأن نصره لم يشملها.

وصحبها الى المكتب، وانتظرت في صمت الى أن راجع الرسائل ووقّعها قائلاً:

«هل أوصلك؟»

«كلاّ أشكرك».

وسرّها أنها كانت تطوي الرسائل وتضعها في مغلفاتها، وكان وجهها بعيداً عنه.

«ستكونين آمنة».

احمرّ وجهها ورمت إليه بنظرة قائلة:

«أرجوك، لا تهزل».

«وهل أنا أهزل؟ سأصدّق كلمتك وان كنت موقناً أنني لن أضحك».

ومدّ يده فجأة وأخذ بذراعها، وضغط عليها بأصابعه وهتف:

«كاتريونا»

كانت تشعر بفزع، من نبرة العنف في صوته، ومن ردة فعلها لهذا الاتصال البدني اليسير. وألهمها الحاجة الى أن تلتفت إليه وتلقي بنفسها بين ذراعيه، كما ألهمها ضرورة أن تفعل العكس تماماً وأن تظل بمعزل عنه، وألاّ تظهر من جانبها أيّة بادرة للصخب الذي أثارته لمسة يده في أعماقها. وجاء صوت أندرو فجأة، وهو يقف على عتبة الباب، كأنه طوفان ماء بارد.

«هل ثمة شيء؟»

«لا شيء. ان السيد لورد على وشك الذهاب»

قالت كاتريونا ذلك وهي تحرّر نفسها من قبضة جيسون اذ خفت وكرهت نبرة التوسّل التي ظهرت في صوتها، وحدّقت في الأرض متجنبة نظرته إليها وان أدركت أنه وقف يرقبها، وبعد برهة بدت كالدهر، التقط معطفه ووضعه على كتفيه، وحيّا أندرو ومضى. وساد صمت طويل، ثم قال أندرو بهدوء:

«أتريدين التحدث؟»

«ليس هناك ما يمكن الحديث بشأنه».

«ولكنك ولورد..لستما بالضبط..غرباء؟»

وقالت وعيناها لا تزالان مثبتتين في الأرض:

«كلا».

«فهمت. هذا يفسّر الكثير في أي حال»

«كان المفروض أن أقول لك في النهاية. ولكنني كنت أشعر شعوراً مقيتاً لو أخبرتك. انني لم أتوقع أن يحدث كل شيء، على نحو ما حدث».

قال أندرو في هدوء وابتسام:

«أعرف ذلك، يا فتاتي العزيزة، انني أعلم انك تصرّفت بكل حسن النية، وانني لموقن أننا عندما يتاح لنا الوقت لالتقاط أنفاسنا، فستدرك تماماً أن المركز هو المستفيد في النهاية. إنّ الأمر يحتاج الى التعوّد فقط عندما لا تكونين متوافقة مع وسائلهم. ولكنني أقول شيئاً واحداً عن صاحبك السيد لورد انه يبدو وكأنما الفوز حليفه دائماً».

جفلت كاتريونا في داخلها، وقالت:

«انه ليس صاحبي».

«لا؟ حسناً يا كاتريونا. لن أتطفّل على شؤونك. وليس لي الحق في اختبارك. اذهبي الى البيت الآن، فأمامنا يوم حافل غداً. وآمل أن تتحمّل الضغط جميعاً».

قالت كاتريونا بصوت غير مسموع تقريباً.

«وكذلك آمل أنا».

٧ ـ دائماً الرجل الخطأ!

بدا الأمر مدهشاً بعد أن أعتاد الجميع على وجود طاقم التصوير بينهم. فلم يمرّ يومان حتى كانت آلات التصوير والميكروفونات والأسلاك جزءاً من الأثاث. وأصبح لوكاس ورفاقه كأنهم خلانٌ قدامى.

وكانت ديان، سكرتيرة جيسون، قد شفيت من مرضها وعادت الى العمل. فخفّ الضغط على كاتريونا، التي لم تدر إن كان هذا قد سرّها أو أحزنها. فمهما قالت لنفسها إنّ مشاعرها نحو جيسون هي مجرد تضييع للوقت، فانها في الوقت نفسه لم تكن تستطيع أن تنكر وجودها. وكان من الصعب أن تظلّ محتفظة بمظهر المتجنبة، لتحمي نفسها في وجوده، وان كان جيسون قد اقتصر بنفسه عنها كذلك، فلم يعد يعرض عليها أن يوصلها الى المنزل، أو يوحي لها بأن علاقتهما تتجاوز حدود العمل. ولم تره الآن كثيراً بعد أن بدأ التصوير، وحلّت ديان محلّها بآلة كاتبة متنقلة كانت تستدعها عند الضرورة على أي شيء، بدون استخدام المكتب إلاّ نادراً. وأرغمت كاتريونا نفسها على التركيز في عملها، وكلّما فاجأتها أية خطوة غريبة تدبّ في البهو، كانت تتطلّع الى الباب بأمل. ومع ذلك فقلّما كانت وحدها، اذ أن الفتاة ميتش تنفق الآن معظم نهارها متكومة، وقد انحنى رأسها، على كرسي المطبخ القائم بين خزانتي الملفات، والقيثار غير بعيد عن قدميها. وقد ألفت كاتريونا بمرور الوقت دخولها، وبدأت تتحدث إليها. ولم تتوقع منها رداً، بل لم تعرف حتى إن كانت ميتش، وهي غارقة في عالمها الخاص، تدرك شيئاً عن المونولوج الذي بدأت تحدث به نفسها في تردد

أولاً، ثم في ثقة متزايدة. وظنّت كاتريونا أن ميتش مجنونة في البداية وهي تنصت في دهشة الى خليط الكلمات والأفكار المسترسل من فمها، وكانت على وشك أن تقرر أنّ هذه الفكرة مضيعة للوقت عندما رفعت ميتش رأسها فجأة ونظرت إليها. وقفز قلبها في صدرها، اذ لمحت في عينيها لأول مرة إشعاراً بوجودها. لقد حدث نوع من الاتصال الضعيف، ولكنه بعث الأمل في نفس كاتريونا . وعندما ذكرت لأندرو ذلك فيما بعد، بدا مسروراً لاهتمامها، ولكنه لم يجد فيما قالته ما يبعث على التفاؤل.

«لا تفرطي في الأمل يا كاتريونا. لقد ظننّا أنا وجين مرّات من قبل أننا على وشك النفاذ إليها، ولكنها في كل مرة تنقوقع على نفسها من جديد. ولا أريد أن تحزني اذا حدث ذلك معك».

وظلّت كاتريونا تذكر كلماته خلال لقائها التالي مع ميتش، ولكنها ظلّت أيضاً تشعر بالأمل. وواصلت ثرثرتها غير المنطقية مع نفسها. فكانت ترى ميتش أحياناً ترقبها والحيرة تعلو وجهها، كمن يفتح الراديو على محطة أجنبية ويحاول التعرّف الى لغتها. وبمرور الوقت، وبدأت كاتريونا تشعر بصعوبة في إيجاد موضوعات للحديث. كانت قد تعرّضت في حديثها لعملها في المركز، وصداقتها لسالي، وحتى زيارتها لمركز التليفزيون وغنائها في حفل سويرا دين.

وكان من المحتم أن تعود في النهاية الى العمّة جيسي وأيام تورفيج، وقد استثار ذلك في نفسها ألماً مختلفاً. وبدا لها الأمر كأنها تردد حياة شخص آخر، وتجربته، وكأن الأمور التي وقعت لها في لندن منذ وصولها هي الحقيقة الوحيدة. وقد أشعرها ذلك بالذنب والحيرة، وقالت لنفسها إنها نفس الشخص، ولكنها كانت تدرك أنّ هذا ليس بصحيح، وأنها في فترة أسابيع قد تغيّرت من تلك الفتاة التي خرجت من موطنها تحدوها سذاجة مرحة. وتعرف في ذلك الوقت معنى الأمن والأمان. ولكنها تدرك الآن، وهي ترتعد، أن ما تلمسه ليس إلاّ الشك وعدم اليقين!

وَلكن توقفها عن الحديث واستبطانها لأمورها تبخر عندما تطلعت الى ميتش، ووجدتها تحدق فيها. ولم تصدق ما رأته في عينيها. تساؤل بصحبه توقع. كأنما أضحى الصمت يزعجها. وقالت لنفسها أنها تريد منها أن تستمر في المحاولة معها. فغمرتها موجة من الغبطة دفنت مع مشكلاتها. وأستأنفت حديثها وهي تخفي سرورها وتقاوم الرغبة في النظر الى ميتش كثيراً. تلمساً لرد فعل. وبدأ صوتها تتخلله نبرات دافئة وهي تتذكر أموراً أخرى. أمسيات حزيران التي لا تنتهي، والحقل المزلج المرتقب، ورائحة الخبز والكعك، ودفء البحر الذي تعلّمت السباحة فيه، وحتى رصيف موليج الصاخب، حيث اعتادت أن تصحبها العمة جيسي في العطلات، لترقب السفن وهي تبحر الى الجزر وزوارق الصيد وهي تفرغ شحناتها تحت أشعة الشمس الذهبية.

وتوقّفت عندما أدركت أن ميتش لم تعد تنصت، بل تحدق من وراء كتفها بعينين متسعتين، وقد تصلّب جسمها. والتفتت كاتريونا لتجد جيسون قائماً عند الباب، وقد أرتكن اليه ويداه في جيبيه. وبدا كأنه واقف هناك من زمن. قال:

«انك ترسمين صورة ريفية رائعة يا آنسة موير. ولعلّك تعرضين خدماتك على لجنة السياحة الاسكتلندية»

«ان لديّ وظيفة بالفعل»

«حقاً. وهل هذا جزء منها؟»

ونظر الى ميتش، التي كانت قد اختطفت غيتارها وأوشكت على الفرار، وقالت كاتريونا وهي ترقب رحيلها بخيبة أمل:

«أعتقد ذلك»

أومأ الى آلتها الكاتبة قائلاً:

«احتفظي بجهدك لعملك الذي تتلقين عنه أجراً يا آنسة موير قد تحطمين أظافرك ولكن قلبك سيظلّ سليماً»

انقبضت يداها على غير إرادة منها، ولكنها قالت في ثبات:

«أريد اخباري بألا أتورّط في شيء»

«هذه هي سياستك المعتادة، أليس كذلك؟ أن تبقي بمعزل عما يحدث، وألا تسمحي لأية مشاعر بالتدخل. حذار يا كاتريونا. إن المرأة في داخلك قد تحاول الهرب وانت كفتاة يمكن أن تكوني العامل المساعد على حدوث ذلك»

أدى إحساسها بحرج مشاعرها الى التهوّر.

«انك تبدو مغروراً يا سيد لورد، فهل ذلك لأنك أخفقت في أن تكون أنت نفسك العامل المساعد»

بدت نظرة عينيه الرماديتين الباردتين كأنما يشعرها بازدراء.

«انت تستخفين نفسك بذلك يا عزيزتي! ربما لم أكن على درجة من الاهتمام لجعلني أبذل الضغط الضروري»

ثمة شيطان يدفعها الى الاستمرار. قالت:

«بالطبع، لن تحتاج مع الآنسة دين الى بذل أي ضغط أليس كذلك؟»

«لا تتوقعين مني في الحقيقة أن أرد على ذلك. انني أنصحك يا كاتريونا بارجاع مخالبك، قبل أن يقرر أحد تقليمها لك: ان جهودك التي تشكرين عليها مع تلك الفتاة لا تجعلك خبيرة بالطبيعة البشرية»

أحنت رأسها وهي تشعر بالدموع تحرق جفونها، وقالت معتذرة:

«انني أسفة»

«انسي ذلك. هل لي أن أستخدم التليفون هنا؟»

نهضت عن المائدة قائلة:

«بالطبع. هل هي مكالمة خصوصية؟ أعني هل تريدني أن أخرج؟»

«الأمر متروك لك. سأتصل بالآنسة دين لتتناول العشاء معي الليلة. وربما تريدين المكوث لتعرفي كم من الضغط أبذل»

«كلا، شكراً»

قالت ذلك بصوت مكتوم، وخرجت حتى قبل أن يدير القرص. وقابلها أندرو وهي تعبر البهو الى المطبخ.

«أوه ان لوكاس يريد أن يعرف يا كاتريونا اذا كان في وسعنا أن نرتب الحفل ليلة غد. يريد أن ينتهي من التصوير فيما يبدو، ويرى أنّ الحفل سيكون عنصراً خفيفاً اذا قورن بسائر عناصر البرنامج».

حدقت فيه مفزوعة:

«يا للسماء! لم أكن أتخيل أنهم يريدون تصوير الحفل. هل تعرف السيدة هندرسون ذلك؟»

«لا أعتقد. كان لوكاس وجيسون لورد على اتصال بها فيما يبدو، وطلبا منها الحضور الى المركز، لاجراء حوار معها وهي تتحدث الى النزلاء، أو تساعد هنا أو هناك. ولكنها أبت وقالت إنها تفضل الحوار في منزلها أو خلال المناقشة التي ستجري في الاستديو، وأعتقد أنها مخطئة بذلك. لقد استخلصت لنفسها نتائجها الخاصة عن طريقة إخراج البرنامج، وأخشى أن تصدم. لو انها جاءت فقط وتعاطفت، لربما كان ذلك منذراً لها بما سيجد من أموره.»

وافقت كاتريونا وهي تتمنى نسيان تلك الفكرة عن إقامة الحفل، ولكنها أدركت أنّ النزلاء سيصابون بخيبة أمل اذا تراجعت الآن. وقدّرت في النهاية أن استمتاعهم واحساسهم بألفة الروح بينهم، أهمّ من أي اتهام قد توجهه لها السيدة هندرسون مستقبلاً بأنها سعت الى لفت الأنظار الى نفسها، وبقيت بعيدة عن المكتب أطول وقت ممكن حتى لا تخاطر باستراق السمع الى حديث جيسون مع مويرا. وعندما عادت أخيراً، لم يكن ثمة أثر لوجوده إلاّ عقب سيكارته في المنفضة، وقد أطفأها من منتصفها. وتمنّت أن تطفأ مشاعرها بالطريقة نفسها.

وظلّت تعمل الى وقت متأخر في المساء، وهي تساعد أندرو على إعداد ميزانية أخرى لاجتماع مجلس الأوصياء، وعرض عليها بعد ذلك توصيلها للمنزل فاعتذرت. وبينما كانت تمر بالبهو في طريقها الى الخارج، وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام مويرا دين، وهي ترتدي ثوباً من الشيفون الأزرق للسهرة. وشعرت بأعماقها تئن وهي ترى العداء في نظرة مويرا. لو كان لديها أدنى فكرة عن لقائها في المركز للذهاب الى سهرتها لأخفت نفسها في مكان ما.

«أنت ثانية! ماذا تفعلين هنا. هل تقيمين في هذا المكان؟»

جاهدت كاتريونا لتمسك أعصابها.

«كلا يا آنسة دين. أنا أقيم مع سالي فنتون وهنا أعمل في المكتب».

«فهمت. وأتساءل لماذا اختار جيسون هذا المكان. ربما كانت هذه هي القصة المحزنة التي رويتها له في مطبخي تلك الليلة».

ثم ألقت الى ما حولها نظرة استخفاف، وقالت:

«يا له من مستودع قمامة! هذا مكان يجب هدمه لا إنقاذه. ولكن لعل جيسون سيقول هذا في البرنامج؟»

قالت كاتريونا وهي تحاول تبع الانزعاج الذي أثارته كلمات مويرا في نفسها:

«لا أعتقد ذلك... إنه في صفنا... كل الطاقم في».

ضحكت مويرا بازدراء، وقالت:

«ان الطاقم كله يفعل ما يشاء. وهو ليس في صفك أو في صف أحد. إنه صحفي من قمة رأسه الى أخمص قدميه، ويعرف الخبر الجيّد عندما يلمسه. فاذا أبدى اهتماماً بهذا المكان، فليس ذلك لأغراض خيرية. بل لأنه اكتشف شيئاً يمكن ترجمته جيداً بأسلوب تلفزيوني. وفيما عدا ذلك فلن يهتم. وسيكشف تماماً عن حقيقة ما يجري لو أنه عثر على شيء. وهناك ما يحدثني يا آنسة موير بأنك ستندمين لو كنت أمسكت لسانك».

امتقع وجه كاتريونا، وقالت ببطء:

«انني لا أصدقك».

«لك ذلك يا عزيزتي. ولكن لا تقولي انني لم أحذرك. وسأجعل سالي تريك أقرب وكالة للتوظيف فقد تحتاجينها».

«ما هذا الذي تحتاجه الآنسة مويرا؟»

قال جيسون ذلك وهو قادم من الجانب الخلفي للبيت، ومعطفه معلق على كتفه. وردّت مويرا وهي تلتفت اليه مبتسمة:

«أية وظيفة خير من هذه على ما أعتقد! هل يمكن أن نذهب الآن. ان جلدي يقشعر من مثل هذه الأمكنة!»

تناول يدها ورفعها الى شفتيه قائلاً:

«لا يمكن أن نسمح بذلك».

وشعرت كاتريونا من كلماته كأنه يربت بها على يد مويرا، فأحسّت بتعاسة. أرادت أن تواجهه بتلميحات مويرا، ولكنها قررت أنه لا فائدة من ذلك. فاذا كانت مويرا كاذبة، فسيغضب ولكن على نحو ملؤه الصفح، ولكنها اذا كانت تقول الحقيقة، فكل ما سيحتاج اليه هو أن يصدر تكذيباً. واذا أبلغت أندرو فسيكون ذلك بمثابة عبء تضيفه الى أعبائه.

وقالت مويرا وهي تتحسّس ذقن جيسون:

«أنت يا حبيبي لم تحلق بعد».

قال وهو يأخذ بذراعها و يوجهها الى الباب:

«سأحلق فيما بعد. ستكون هذه أمسية طويلة. طابت ليلتك يا آنسة موير، هل تصحبك الى مكان ما؟»

هزّت كاتريونا رأسها وقد بلغت بها التعاسة مبلغاً لم تستطع معه أن ترد. وأفسحت لها الطريق قبل أن تبدأ هي بدورها الرحيل، وهي تسمع ضحكة مويرا كتخلّل نسيم المساء.

وقضت ليلة مضطربة لازمها فيها الانزعاج من دوافع جيسون في تصوير الفيلم، وظلّ معها كغمامة سوداء عندما وصلت الى مقرّ عملها في اليوم التالي. ولكن لم يكن أمامها فسحة كبيرة للتأمل، فقد كان أندرو في الخارج وترك لها بعض العمل تؤديه. وعندما أكملته، أطلّت عليها جين وناشدتها أن تساعدها في الاعداد للحفل. وكانت السيدة لامب وبعض النسوة الأخريات يعملن بجدّ في تحويل غرفة الجلوس الكبيرة الى مكان يسع الحفل. وتعالى الضحك والثرثرة وبعض المزاح مع طاقم التليفزيون وقالت كاتريونا لنفسها انه مهما كان من أثر الفيلم على المركز وعلى حياة أناسه، فقد نشر على الأقل شعوراً بالأمل وان

كان مؤقتاً. فقد دبّت في المركز حياة جديدة وساد المرح والتفاؤل على نحو كانت كاتريونا قد افتقدته عندما جاءت أول مرة.

وفكّرت بمرارة في أن جيسون لورد هو المسؤول عن هذا كله. لقد جعل هؤلاء الناس يثقون به، ويصدّقون أنه جاء لمساعدتهم، وفي وسعه الآن أن يحطّم هذه الثقة بسهولة ومعها روح الأمل التي زرعها. واذا فعل ذلك فلن تجد من تلومه سوى نفسها. فقد أقحمته متجاهلة تحذيراته من أنّ حلوله لمشاكل المركز قد لا تكون مقبولة. ونسيت أنّ وجهة نظره ستكونُ وجهة نظر الصحفي الموضوعي، الرجل الذي يستمع الى كل الأطراف، ويبقى بمعزل عن التورّط، والذي قد يكون حكمه هو أن المركز مغامرة وهمية، مآلها الى الفشل بسبب انعدام خبرة المديرين.

وذهبت الى المطبخ لتساعد جين، فقالت لها:

«هذا أول حفل نقيمه في المركز. لم يكن ثمة ما نحتفل به في الماضي. ولكن الآن، كل شيء يبدو فجأة في صعود. حتى... أوه... لماذا تكونين أول من يعرف يا كاتريونا! اننا أنا واندرو سنتزوج».

«أنت، واندرو! هذا رائع».

اتسعت ابتسامة جين، وقالت ووجهها يزداد حمرة من الخجل:

«نعم. هذا ما نعتقده. كنا نعلم ذلك منذ دهر، ولكن أندرو لم يطلبني إلى الزواج من قبل لأنه شعر أن مستقبل المركز غير مؤكد. ولكنه الآن أسعد حالاً. وفي وسعنا أن نضع لأنفسنا بعض الخطط».

«ولكن اذا حدث ما يسيء، أعني اذا اضطر المركز الى إغلاق أبوابه لسبب أو لآخر.. فهل سيختلف الأمر؟ هل تتزوجين أندرو برغم ذلك؟»

«أوه... نعم... في النهاية بالطبع. ولكن الأبرشية ستنقله على ما أظن الى عمل كنسي، ومن ثم ننتظر الى أن تتحسّن الأمور، ثم انني سأحتاج الى العمل عندئذ لفترة على الأقل. سننتقل بالطبع، فلن يظلّ المركز محور حياتنا على الدوام. ان أمكنة كهذه تحتاج الى دم وأفكار جديدة بصفة منتظمة. ولكننا نود أن نرى

المكان أمناً يؤدي عمله بانتظام قبل أن نرحل».

«وهل ستعلنان خطبتكما الليلة في الحفل؟»

«لا بالطبع، ان الجميع يعرفون في أي حال. والسيدة لامب لم تكف عن التلميح الى ذلك في الأيام الأخيرة. لن تكون الخطبة كنسية في الحقيقة. فأحد أصدقاء أندرو من رجال الأبرشية التي نتبعها، هو الذي سيقوم باقام عقدنا بهدوء في يوم من الأيام».

فكّرت كاتريونا في أن هذا سيكون أمراً رائعاً، الذهاب مع الرجل الذي تحبه يوماً ما الى الكنيسة القريبة ثم العودة منها زوجين. ورأت أنه من الظلم أن تنغصّ على جين لحظة سعادتها هذه بالشكوك التي تساورها. فهذا همها الخاص الذي يتعين عليها أن تتحمله.

كانت ميتش في مكانها المعتاد عندما دخلت كاتريونا إلى المكتب وشعرت في الحديث على نحو ما اعتادت. تحدثت عن مشروعات جين وأندرو للزواج، ثم بدأت تتحدث بالتفصيل عن الحفل، وعن الأغنيات التي تنوي أن تغنيها، والدور الذي تأمل أن يؤديه الآخرون وأخيراً قالت وهي لاهثة الأنفاس:

«يجب أن تأتي أنت أيضاً يا ميتش، وأن تحضري غيتارتك معك. انني سأعتمد عليك».

ونظرت إليها وهي تتحدث، ولكن ميتش بدا عليها أنها عادت مرة أخرى الى عالمها الخاص، وأنها لا تكاد تدرك حتى وجودها.

ومن الباب جاء صوت جيسون:

«هل تتصورين حقاً أنها ستأتي؟»

استدارت كاتريونا لتواجهه وبدها على عنقها. كان قد شغل بالها تماماً طوال الصباح، لدرجة أن الاحساس به فجأة على مقربة منها أصابها بصدمة. ولكنها رفعت ذقنها وقالت متحدية:

«ولم لا؟»

«أرة أن تكوني على صواب. إنه موقف يثير الاهتمام والفضول وينطوي على كل الاحتمالات».

قالت ساخرة، وهي تتذكر عبارة كان لوكاس يستخدمها في الاجتماعات من قبل:

«في سياق البرنامج بالطبع».

«وهل هناك غير ذلك؟»

«لا».

«والمعنى...؟»

«أعني بأنني لن أسمح لك باستخدامها، كما استخدمت الباقين منا».

«لم أكن أدرك أنني استخدمت أحداً».

«لعل الأمر قد بلغ بك اذاً حداً لا يطاق، لدرجة انك لا تدرك ذلك عندما يحدث».

قال بصوت خفيض غاضب:

«لا تظني أن أنوثتك تعطيك نوعاً خاصاً من الحصانة. قد تكونين قادرة على الاهانة يا سيدتي. ولكن هل أنت موقنة أنّ في وسعك أن تتلقيها».

«انني موقنة تماماً».

قالت ذلك بصوت غير مسموع، ولكن أعماقها كانت تصرخ. لم تعد هناك طريقة تستطيع بها أن تعاقبني بعد الآن. يكفي أنك هنا وهذه المسافة تفصل بيننا. يكفيني عقاباً أنك لا تخلص لي القول. وانني لا أستطيع أن آتي اليك.

وهنا أغمضت عينيها والألم يكتنفها، وعندما فتحتهما كان قد ولى. وبقيت وحدها مع ميتش، على صمتها وسكونها، بدون أن تدرك فيما يبدو ذلك المشهد المتوتر الذي أثارته.

وبدأت كاتريونا تترثر من جديد، لا تكاد تعرف ما تقول بالضبط، وتوقفت عندما لاحظت عيني ميتش مثبتتين عليها، وفيهما تساؤل خطير، وأدركت من ملوحة شفتيها أنّ الدموع تساقطت من عينيها.

ووعدت جين وأندرو عندما تعود الى البيت بأن تتناول شيئاً هنا

الصداع الذي انتحلت وجوده من وحي اللحظة.

وفي البيت غسلت شعرها وبينما كانت تجففه بالمنشفة، دقّ جرس الباب. وفكّرت في أن تتجاهله، ولكنه دقّ ثانية. وشهقت وهي تفتح الباب لتواجهها عينا جيسون الغاضبتان. حاولت أن تصفق الباب في وجهه، ولكنه كان أسرع منها ويده تقبض بشدة على ذراعها.

«ارتدي ملابسك يا كاتريونا. إنّ الأمر عاجل وفي حاجة اليك».

قالت في تحدٍ:

«لن أفعل شيئاً من ذلك، ثم كيف تجرؤ على الاقتحام هكذا بدون...»

«بدون اذنك؟ انني آسف لأنه لا وقت لديّ للمجاملات. إنّ مهمتي عاجلة. والآن ارتدي شيئاً من فضلك وتعالي معي».

«الى أين؟»

«الى المركز بالطبع. إنّ الحفل في ذروته. سالي وأصدقاؤها يقومون بما يمكن تفخري به».

خلّصت ذراعها، وقالت وهي تحدّق فيه:

«لستم في حاجة إليّ إذاً».

«أنت على حق تماماً. وفيما يتعلق بي، يمكنك أن تحبسي نفسك هنا في هذه الغرفة الصغيرة، وأن تظلّي عابسة الى ما شاء الله ولكن هناك شخص يحتاج اليك. وأنا هنا من أجلها».

«ميتش؟»

أخذها من كتفها ودفعها الى غرفة النوم:

«أنت فتاة ذكية. والآن اسرعي».

«ماذا حدث؟ يجب أن تخبرني».

«لم يحدث شيء. وهذا ما نريدك لأجله. فصديقتك الصامتة تجلس على إحدى درجات السلم بالمركز. وقد حاولنا جميعاً أن نقنعها بالدخول والانضمام إلينا. ويشعر ميلر بأن هذه فرصة طيّبة تجتاز فيها الفتاة محنتها. وأنا أوافقه على

ذلك. لكنها لا تتزحزح. تتصرّف وكأنها لا تسمع شيئاً. فلنر إذاً ما يمكن أن تفعله قوة إقناعك. فمن الواضح أنك تشعرين بأن طريقتك معها هي الطريقة الصائبة. الفتاة بحاجة الى أن تكون بين الجميع في الحفل».

«إنك تبدو غير أناني بل إنساناً إيثارياً فجأة. فماذا تحتاج إليه يا سيد لورد؟ قطعة من دراما حيّة تزيّن بها فيلمك التسجيلي؟ هل ستسلّط أضواء الكاميرا على ميتش عندما تدخل؟»

قزمّ شفتيه قائلاً في برود:

«لم أصفع امرأة في حياتي أبداً. ولكنني مستعد للاستثناء في حالتك. فلست مضطراً لأن أشرح لك دوافعي. ولكنني أقول لك إنّ التصوير قد انتهى بالنسبة الى اليوم، وربما للأبد فيما يتعلّق بالمركز. إنّ لدينا ما نحتاج إليه. والآن تحرّكي وإلاّ أقسم بالله أن أجعلك ترتدين ملابسك بيدي هاتين!»

وهنا فرّت الى غرفة النوم ويداها ترتعدان وهي تفتح خزانة الملابس. والتقطت أول ما التقطت التنورة البنفسجية والبلوزة الحريرية البيضاء، وحدّقت فيها بغباء للحظة. وذكرى ما حدث في آخر مرة حاولت ارتداءها فيها تطفو الى ذهنها. ثم ألقتها بعيداً، والتقطت بنطلوناً من الجينز وكنزة غامقة ذات طيات على العنق. وكان وجهها ممتقعاً وهي تنظر إليه في المرآة، ولكنها لم تحاول استخدام مساحيق التجميل. وربطت شعرها الى الخلف برباط من البلاستيك. وحملت حقيبة الكتف، ومضت متجاوزة جيسون الى الباب.

«ملابس الحفل؟»

«ملابس الشغل»

وظلاّ صامتين الى أن وصلا الى المركز فجلست بجوار ميتش على الدرجة السفلى من الدرج. وكان صوت الموسيقى والضحك مسموعين، وعرفت كاتريونا من تصلّب ميتش أنها تسمع وتعي فوضعت يدها على ذراعها. وقالت:

«أتستمتعين بالحفل؟ لقد أخذت لنفسك زاوية مضحكة. هذا المكان فيه تيار ألا

تشعرين ببرد؟»

هزّت ميتش رأسها في حركة طفيفة فقالت كاتريونا:

«حسناً، أنا أشعر بالبرد. واذا أصبت به، فلن أستطيع الغناء، بينما ينتظرني الجميع».

وشعرت بأنها أصابت الوتر الحسّاس هذه المرة، فضحكت قائلة:

«انني عصبية. أليس هذا غباء؟ وأشعر بأنني كذلك. إنّ الغناء هناك في موطني كان أمراً سهلاً. فقد كنت أعرف الجميع وكانوا أصدقاء. ولكن ليس لي أصدقاء كثيرون في لندن، ولم أعتد الغناء في غرفة تغصّ بالغرباء. فاذا كان لي صديق هنا، فانّ الأمر سيختلف».

ونهضت ببطء، ومدّت يدها الى ميتش قائلة:

«تعالي واسمعيني أغنّي، فلن أكون عصبية اذا كنت هنالك».

ولم تصدّق نفسها عندما مدّت ميتش يدها الباردة الصغيرة ووضعتها في يدها. ودخلتا معاً الى الغرفة الباهرة الأضواء، فلم يلتفت إليهما أحد. وجلستا على أريكة وكان الجميع منهمكين في الغناء ولكن بعد أن انتهت الأغنية وكفّ التصفيق، نهض أيان وأشار لها بيده، فتركت يد ميتش ومرّت بين الحضور الى مقدمة الغرفة. وأعلن أيان حضورها وسلّمها غيتارة، ودفع أحدهم إليها بمقعد من غير مساند، فجلست عليه وهي تشعر بجفاف فمها واضطراب معدتها. وبدأت تغني، وهم يرددون وراءها بعض المقاطع. ودوّى التصفيق حتى طغى في ذهنها على التصفيق الذي قوبلت به في حفل مويرا. وازدادت شجاعتها فغنّت أغنية العرس ثم أسود شعر حبيبي، ومرّت خلال السوق. وأرادت أن تتوقف ولكنهم لم يدعوها. وطلبت منها السيدة لاسب أن تغنّي أغنية للأطفال ينامون عليها، فداعبت أوتار الغيتار وهي تتذكر الكلمات. وكانت تعلم أنها تخاطر بتلك الأغنية، ولكنها فضّلت أن تحاول:

عندما أكون وحيدة والليل أسود والبحر صاخب،

يضيء قلبي النقي...

في هذا الصفاء... على ضوء الحب

تسير روحي في الطريق القديم إليك.

واذ كانت تواتيها الكلمات، وهي تغني، فانها نسيت كل شيء، وكل من في الغرفة حتى ميتش. وفكّرت في أنها وحدها مع جيسون في هذه الغرفة الكبيرة، فلم تعد هناك موانع هذه المرّة. وجسّد صوتها كل الحب، وكل الأشواق التي ثارت في نفسها. فوهبت نفسها للحن مثلما أرادت أن تهب قلبها له. وتجلّى كل الألم وكل الرفض اللذان كانت تشعر بهما طوال الأسابيع الماضية في كلماتها «حزينة أنا من غيرك». واستغرقت تماماً في عاطفة اللحن لدرجة أنها لم تع شيئاً حولها. الى أن بدّدت الأغنية صرخة اسكتتها. وقفزت ميتش على قدميها ويداها تتلويان في ألم، وعيناها تحدّقان عبر الغرفة في عيني كاتريونا.

« ميتش... أوه... ميتش...»

ووجدت نفسها تلقي بالغيتار الى أيان، وتشق طريقها الى جانب ميتش. وتناولت اليدين الملتويتين وهي تحاول ألاّ تجفل عندما أمسكت بهما بقبضتين جامدتين. ونظرت الى ميتش وقالت ببطء ووضوح:

«ما أسمك؟»

همست الفتاة في صوت خشن التقطته أذنا كاتريونا المرهفتان.

« كارول... كارول بارتون».

«ومن هو ميتش... يا كارول... من هو ميتش؟»

تحرّكتا كتفا كارول كأنّما تريد أن تنفض أخيراً عن كاهلها عبئاً أكبر ممّا تحتمل.

«لقد مات... أوه... يا إلهي... لقد مات».

وأخذت تبكي وهي تتشنج بنحيبها. وجاء أندرو قائلاً بسرعة:

«فلنأخذها بعيداً عن هذا الزحام. تعالي أيضاً يا كاتريونا. وأنت يا جين. خذي بذراعها الأخرى».

ومضوا بالفتاة الباكية صوب الباب. واستطاعت كاتريونا أن تسمع

أيان وهو يستخدم مهارته كممثل في لفت نظر القوم. وقبل أن يغادروا القاعة، كان الحضور قد بدأوا يغنون من جديد.

لم يكن هنالك جديد، فيا هو مألوف من الأحداث، في رواية كارول كان ميتش عازفاً على القيثار، ولكنه لم يفلح في أن يكون مغنياً كما كان يحلم، فأدمن المخدرات، وفقد عمله، ثم حكم عليه بالسجن مع وقف التنفيذ بتهمة السرقة، وأخيراً مات بتسمم الدم. ولم يبق لكارول إلاّ غيتاره، وذكريات المرارة، وشعور سبّب لها عقدة ذنب لأنها كانت تلاحقه بالتأنيب حتى هجرها، ولقي مصيره.

وجاء الطبيب، فأراح كاتريونا من سهرها على كارول. كانت طوال الوقت الذي أمضته كارول وهي تروي حكايتها، منحنية عليها ويداها في يديها. وخرجت الآن تدعك مفاصلها. والغناء لا يزال قائماً ولكنها لم تعد تستطيع أن تواجه الحشد بعد. وذهبت الى المطبخ، وصبّت لنفسها كوباً من الماء. وجاءها صوت جيسون من خلفها يقول بهدوء:

«هل كل شيء على ما يرام؟»

«نعم. إن الطبيب معها الآن».

«أعني... أنت...»

هزت رأسها بخفة، وارتشفت رشفة أخرى من الكوب. وتقدّم منها جيسون قائلاً:

«ما كان يجب أن أحثك على الحضور الى هنا الليلة. إنني آسف»

«أنا لست آسفة. لقد تكلّمت الفتاة وأوضحت لنا عن كل شيء. والآن يستطيع اندرو مساعدتها. هذا الى أنني كنت أعرف ما أفعل. كنت أعلم أنّ تلك الأغنية تعني شيئاً بالنسبة إليها، فغنيتها عمداً».

«لم أفهم ما تعنين ولم يكن هذا انطباعي، ومع ذلك فقد بدا لي أنك تغنّين من كل قلبك».

صمتت. كان هو آخر شخص يمكن أن تقول له أنّ كلّ كلمة وجملة موسيقية

من ذلك اللحن كانت تمتزج بحنينها اليه.

«يا لكاتريونا المسكينة... دائماً مصيرها أن تقع في الحب مع الرجل الخطأ».

كان يعرف. ورفعها هذا الادراك المهين الى أن تظلّ محدّقة في الأرض. لم تستطع أن تواجهه وترى... ماذا؟ السخرية؟ الشفقة والرثاء؟

وتولّد التوتر في جسمها فجأة وهو يمد يده ويجذبها اليه ويضمّها في رفق. ومرّ بيده على وجهها ثم رفع اليه ذقنها بإصرار. كان على وشك أن يقبّلها، وبقوة لم تكن تظنّ أنها تملكها، خلّصت نفسها من ذراعيه وحدّقت فيه، وهي تخفي غضبها ومشاعرها الأخرى:

«وفّر على نفسك شفقتك يا سيد لورد. احتفظ بها لأناس مثل كارول. إنها في حاجة اليها، وأنا لست كذلك».

ومرّت برهة صمت مفعمة بالتوتر، ثم قال بصوت بارد قبل أن ينصرف:

«كما تشائين»

٩ - نعم انه حبيبي

بدا مكان العمل غريباً عندما عادت اليه بعد مغادرة فريق التلفزيون وكان من الغريب أيضاً أن تجد لفراقهم وحشة بين النزلاء، خاصة بين الذين كانوا يشكّون في البداية من تعدّي الفريق على خصوصياتهم. واستمعت كاتريونا إليهم وابتسمت ووافقتهم. أما ألم قلبها فقد كتمته في نفسها. وقالت السيدة لامب، وهي تضع آخر قطعة من الغسيل في المجفف وتغلقه:

«هذا السيد لورد يا له من رجل لذيذ! لو كنت صغيرة السن مثلك يا كاتريونا، لتبعته بسرعة انطلاق الرصاصة!»

وقالت السيدة ورترن وهي نزيلة جديدة:

«فتيات هذه الأيام لا يعرفن الشيء الطيب عندما يصادفنه».

اغتصبت كاتريونا ابتسامة وهي تلحظ نظرة جين إليها، وقالت:

«أعتقد أننا نعرف... ولكن فكرة المنافسة هي التي تثبط همتنا».

قالت السيدة لامب:

«إذا كان ثمة شيء يستحقّ أن نحصل عليه، فانه يكون جديراً بأن نحارب من أجله. وربما لو كافحت أكثر لما رحل بيرت كما فعل».

وقالت كاتريونا لجين عندما أصبحتا وحدهما:

«يبدو من حديثها أنها مستعدة لتقبله إذا عاد، برغم الطريقة التي هجرها فيها».

«لا أشك في ذلك. وهذه إحدى الأمور المشجعة التي لاحظناها أنا وأندرو. فالناس لا يسقطون العلاقات التي سارت خطأ، حتى وإن بدت كالكارثة بالنسبة الى

الآخرين. انك تسمعين فتيات بعيون مكدومة وضلوع مكسورة يلتمسن أعذاراً لأزواجهن الذين أنزلوا بهنّ ذلك. ولا أظن أنني أملك مثل هذا النوع من الشجاعة، أو التفاؤل».

هزت كاتريونا رأسها، قائلة:

«ولا أنا. كيف حال ميتش اليوم، أعني كارول؟»

«هادئة جداً. راشدة تماماً. ستقابل الدكتور ويترز هذا الصباح. وقد أعطت لأندرو عنوان والديها في الشمال. وسيكتب إليهما ليرى إمكان قبولها لها ولو لفترة. اذ يبدو أنه وقع شجار عنيف عندما تركت المنزل في البداية. وهي تخشى ألاّ يقبلوها إذا عادت. انني آمل أن تكون مخطئة. فالحب والاستقرار هما ما تحتاجهما الآن».

ظهر أندرو وعلى ملامحه الضيق:

«السيدة هندرسون جاءت، وتوشك أن تعلن الحرب أيضاً. هل لنا في بعض القهوة؟»

وجدت كاتريونا وهي تحمل إليها الصينية فيما بعد، أنّ مزاج السيدة هندرسون لم يعتدل، فقد شملتها بنظرة احتقار متعالية، ثم التفتت مرّة أخرى الى أندرو.

«كما قلت لك يا سيد ميلر، لا أدري، قائلة أن يصبح هؤلاء الناس جزءاً من الحضور في الاستوديو. ولو شاورتني من قبل لرفضت ذلك».

«آسف أن يكون هذا شعورك يا سيدة هندرسون. ولكنني لا أرى في هذا ضرراً. لقد شاركوا في الفيلم، وهذه فرصتهم ليشاهدوا البرنامج. فليس لدينا جهاز تليفزيون كما تعلمين. والسيد لورد يريد إشراك النزلاء في مناقشة الاستوديو».

«ان السيد لورد يسلك سلوكاً طائفياً على نحو مؤسف. وأظن أنه لا يرى بأن هؤلاء الناس هم مجرد حالات خيرية».

«أعتقد أن السيد لورد يعرف من هم هؤلاء الناس. وأعتقد أنه يعرف بالضبط كيف يدير برنامجه. وليس لنا أن نملي عليه طريقة تشكيل الحضور في مناقشة

الاستوديو.

«حسناً، لقد خاب أملي في الأمر كله. وأتمنى لو لم أصرّح بتصوير الفيلم. وأعتقد بأنه يتعيّن عليّ أن أمنع عرض هذا البرنامج».

«لقد فات الوقت على ذلك. فمن المقرر عرضه مساء الأثنين. ثم إنّ إلغاء المشروع لا بد أن يأتي بقرار من مجلس الأوصياء، وأشك في إمكانية عقد مثل هذا الاجتماع في وقت مناسب. كما ان هناك قدراً كبيراً من الاهتمام بالبرنامج من مصادر أخرى. لقد عرضوا عليّ الأشتراك في ندوة إذاعية عن مشكلات المشرّدين وسألتني إحدى الصحف المسائية قبل ذلك عن عملنا».

«حقاً؟ آمل أن يكون لهذه الدعاية كلّها أثرها المرغوب، وألاّ تجعل الناس هنا غير قانعين وغير شاكرين. لديّ شكوكاً جسيمة في حكمة هذا المشروع كلّه... طاب صباحك يا سيد ميلتر».

وقال أندرو متجهاً لكاتريونا بعد انصراف السيدة هندرسون:

«هذا ما أخشاه. كنت آمل ألاّ تكتشف أن سكان المركز سيكونون بين الحضور. فلنأمل ألاّ تشير إليهم على أنهم حالات خيرية، وإلاّ حدث شغب».

«ربما يكون هذا ما يحتاجه المركز. لست أعني شغباً، بل هزّة ما بين الأوصياء. فلا يمكن أن يكونوا في مثل جمود السيدة هندرسون».

«بالعكس. أعتقد أنّ كثيرين يريدون أن تكون لهم كلمة إيجابية أكثر في ادارة الأمور. ولكن لا أحد يريد أن يكون البادئ، لأنها أرملة جيمس هندرسون، وهذه أموال هندرسون التي تنفق على المركز حتى الآن. إنه الولاء للاسم، لكن سيكون أيسر للمركز لو خفّت سيطرتها».

وكانت سالي متعاطفة عندما روت لها كاتريونا أحداث اليوم وهما تتناولان العشاء. قالت:

«المال هو جواب كل شيء بالطبع. واذا أمكن تدعيم المؤسسة بتمويل خارجي، فان السيدة هندرسون لن تصبح في مركز القيادة».

«ربما يبدو هذا قاسياً، ولكنها مفرطة العداء نحو المركز وكل ما يحاول أندرو

القيام به. ان ما تفعله يأتي من إحساسها بالواجب وليس من أي اهتمام حقيقي بالناس. ولا أعتقد أنها الشخص الصالح لتولّي رئاسة منظمة خيرية».

قالت سالي بعد برهة:

«انه أسبوع هائل لنا جميعاً في التليفزيون. الفيلم التسجيلي عن المركز يوم الاثنين، والتمثيلية يوم الأربعاء. ولكني أخشى ألاّ أستطيع أن أحجز لك مقعداً في الاستديو أيضاً لمشاهدة تمثيلية تحت الجلد».

«لن أذهب إلى الاستديو أيضاً لمشاهدة برنامج هنا والآن».

رفعت سالي حاجبيها وصاحت:

«ولم لا؟ ألا تزالين أنت وجيسون تواصلان هذا النزاع الغريب بينكما؟»

تجنّبت كاتريونا نظرتها، وقالت:

«هذه طريقة تستطيعين بها وصف ما بيننا».

«هناك طرق أخرى. إنك تخيفينني يا عزيزتي أحياناً. لقد كان جيريمي شيئاً... ولكن جيسون!»

«لا داعي لقلقك فأنا لا تساورني أية أوهام بشأن... رفقته معي».

«وهل يعرف شعورك نحوه؟»

أومأت كاتريونا برأسها في بطء. وقالت سالي:

«أوه، يا للأسف... لم يكن هذا تحرّكاً ذكياً من جانبك».

«أعرف ذلك. ولكنني لم أخبره. لقد خمّن هو».

«يا له من شخص ثاقب البصر... ثم ماذا الآن، هل هي مجرّد علاقة من هذه العلاقات القصيرة البرّاقة التي برع فيها؟»

اختنق صوت كاتريونا وهي تقول:

«لا أعتقد ذلك».

وظلّت راقدة مستيقظة وقتاً طويلاً تلك الليلة. تنظر الى المستقبل الذي أصبح كئيباً بائساً. ليس ثمة سبب بعد الآن ليتقابلا مرة أخرى. فهو لن يأتي الى المركز وهي لن تذهب الى الاستديو. وسالي وهي الصلة الوحيدة الآن بينهما، لكنها ستقوم برحلة عما قريب.

ومرّ على ذهنها عندئذ قول ساخر قديم: «الحب يجعل الوقت يمضي، والوقت يجعل الحب يمضي»، وتساءلت وهي تئن كم هو صادق هذا المثل.

انتقلت جولي الى مسكنها في عطلة الأسبوع، وانشغلت كاتريونا عن مشكلاتها باعادة ترتيب الأثاث، وإفساح مكان لحاجيات جولي. ولم تكن قد أخبرت أندرو بأنها لن تذهب الى الاستديو مع الآخرين، ولكنها عندما أبلغته بذلك بعد ظهر الاثنين، قبل قرارها بدون تعليق، وان كانت قد أحسّت بخيبة أمله فيها.

وبينما كانت تطبع على الآلة الكاتبة آخر رسالة من مجموعة رسائل طلبها منها أندرو، سمعت وقع أقدام في الخارج. ودخلت السيدة هندرسون تحمل جريدة مطوّية تحت إحدى ذراعيها، ووجهها ملتهب. وتجاهلت أندرو تماماً وهي تحدق بنظرة عداء في كاتريونا، وقالت:

«انك مفصولة يا آنسة موير. اذهبي فوراً. واعلمي أنني سأكتب الى الآنسة شو أشرح لها بأنها أوصت بالعمل في منظمة دينية خيرية لشخص في مثل خلقك.»

قفز أندرو قائلاً:

«سيدة هندرسون. ليس من حقك.»

التفتت إليه وعيناها تشعان شرراً:

«ليس من حقي؟ وهي تلطّخ اسم المؤسسة في الوحل مع اسمها.»

شعرت كاتريونا بالخجل، اذ وجدت صوتها يرتعد وهي تقول:

«أرجوك يا سيدة هندرسون... أخبريني ماذا فعلته.»

«انك تلعبين دور الفتاة البريئة جيداً يا آنسة. لقد خدعت السيد ميلر، ولكنني لم أثق بك منذ البداية. اجمعي حاجياتك واذهبي. وسأنتظر هنا الى أن تغادري هذا المكان.»

وقف أندرو بينهما قائلاً:

«سيدة هندرسون، انني أصرّ على معرفة ماذا فعلت كاتريونا لتستحقّ هذه

العاصفة منك. وأحذرك من أنّ هنالك شيئاً اسمه التشهير.»

ألقت السيدة هندرسون بالجريدة فوق الطاولة وقالت:

«انظر بنفسك.»

بدأ يقرأ والغضب يبدو في وجهه، ورأت كاتريونا الغضب يتحوّل الى حرج، وتطلّع إليها بسرعة وكأنه يتهمها، فتوسّلت إليه:

«ما الخبر يا أندرو؟»

مدّ إليها الصحيفة في صمت. كان عموداً في الاجتماعيات يضمّ أخباراً عن المشاهير ومعها صور. وكانت إحدى الصور تبدو مألوفة. فقد رأت كاتريونا فتاة سوداء الشعر تقف وهي ممسكة بوسادة. حدّقت فيها عن كثب ثم صاحت:

«ولكن هذه أنا!»

وقرأت في حيرتها ما تحت الصورة: لقد وجد الطائر المغرّد ـ الاسكتلندي الجميل ـ كاتريونا موير عشاً مريحاً في شقة المنتج التلفزيوني جيسون لورد. ولكن هذه الموهبة التي تبلغ العشرين من عمرها ليست هنالك لمجرد غناء أغنيات هدهدة ما قبل النوم. فهي تجيد الفنون المنزلية كذلك، لاسيما ترتيب الفراش. إلاّ أن تدبير شؤون المنزل للسيد لورد، الذي يسعى إليه الجميع، لا يملأ أيامها. فانها عندما تنتهي من ترتيب وسادة، تعمل لمؤسسة هندرسون وهي بيت إقامة لمن لا مأوى لهم. وهذا ما يمكن أن يفسّر لماذا يكشف برنامج السيد لورد القيّم «هنا والآن» الغطاء الليلة عن هذا العمل الخيري الضعيف. إنّ العمل الخيري، كما لا بدّ أن يوافق السيد لورد ورفيقته الجميلة، يبدأ بالتأكيد من البيت.

وضعت كاتريونا الصحيفة ببطء، ووقفت وهي تشعر بالسقم. ولم تكن في حاجة الى أن تقرأ الاسم في نهاية العمود لتدرك من الذي كتب هذا الخليط من التشويه والتلميح. كيف بالله يمكن أن تكون قد نسيت. هنا استرجعت في ذاكرتها الحوار الذي لم تفهمه إلاّ جزئياً في كانتينا التلفزيون، ثم زيارة روجر هنت لشقة جيسون. كانت تنوي إخبار جيسون بها، ولكنّ الأحداث التي أعقبت ذلك أنستها هذا الأمر.

قال أندرو:

«كانت صحيفة غلوب هي التي اتصلت بي. وتساءلت كيف لهم أن يعرفوا هذا كله عنا».

تطلّعت إليه قائلة:

«أنت تصدّق ذلك؟»

قالت السيدة هندرسون:

«أتحاولين القول إن هذا الصحفي كاذب. أين كنت، إن كان لي الحق بأن أسأل، وقت التقاط هذه الصورة؟»

«هل كنت في غرفة نوم لورد حقاً؟»

أومأت كاتريونا برأسها في تعاسة، وقالت:

«نعم، ولكن الأمر لم يكن على النحو الذي تفكّران فيه. انني... لا أقيم مع جيسون. بل أشارك في مسكن مع سالي فنتون. إنها ممثلة. وفي وسعك أن تسأليها يا سيدة هندرسون».

قالت السيدة هندرسون، وكلماتها تقطر سماً:

«ممثلة وصديقة كذلك للسيد لورد. لا أشك في ذلك؟»

«أجل، انها صديقته. ولكنني لا أرى...»

«وهل في وسعك أن تقسمي لي أنك لم تقضي الليل في بيت السيد لورد أبداً؟»

«مرّة واحدة، ولكن...»

التفتت السيدة هندرسون الى أندرو، وهي تبسط يديها كالمنتصرة قائلة:

«أرأيت؟ إن لديها من الوقاحة ما يجعلها تعترف بذلك».

قال أندرو بهدوء:

«إن حياتها الخاصة هي من صميم شؤونها».

«بالطبع، إذا ظلّت خاصة. ولكن الآنسة موير تركتها تصبح شيئاً عاماً، واجترأت على اقحام اسم المؤسسة في دسائسها القذرة. إنني أكرر مرّة أخرى يا سيد ميلر، لا بدّ من ذهابها».

وقف أندرو منتصباً، وقال:

«افهمي هذا يا سيدة هندرسون. إذا فصلت كاتريونا، فسأذهب أنا أيضاً والآنسة هيدون. فأنا لا أصدّق كلمة واحدة من هذه الحثالة الكريهة. أوافق على أنه من سوء الحظ إقحام اسم المؤسسة في ...»

«وأنا أيضاً يا سيد ميلر»

«ولكن كاتريونا ليست ملومة في ذلك. ولا أستطيع أن أتصوّر أنها وافقت أو عرفت بنشر هذا الموضوع».

قالت السيدة هندرسون، وهي تنهي الحديث ببرود:

«إذا فعلت شيئاً سيء التقدير مثل هذا أنت والآنسة هيدون يا سيد ميلر، فانني سأغلق المركز».

لم تعد كاتريونا تحتمل، فقالت:

«أوه، كلا. يجب ألاّ تفعل ذلك يا أندرو. هؤلاء الناس يحتاجون إليك. استطيع الحصول على وظيفة أخرى. وهي لا يمكنها أن تفصلني لأنني سأستقيل. ولا يمكنني البقاء وأنا أعرف كيف تنظر اليّ السيدة هندرسون».

قالت السيدة هندرسون وهي تجلس:

«لعل هذا هو أفضل حل. إن السيد ميلر سيرتّب إرسال أجر أسبوع إليك».

قالت كاتريونا وهي تهزّ رأسها، وتحاول الابتسام لأندرو، الذي بدا على وجهه القلق:

«لن يكون هذا ضرورياً. وداعاً يا أندرو. ارجو أن تنقل تحيات الوداع عني إلى جين والآخرين».

قال أندرو وهو يصافحها:

«ليست هذه هي نهاية الأمر يا كاتريونا. سأكون على إتصال بك».

ولم تدرك كاتريونا إلاّ وهي في طريقها الى المنزل أنها تحمل نسخة السيدة هندرسون من الجريدة. وفي الأندر غراوند، فتحت الجريدة وعاودت قراءة العمود. لا بدّ أن يكون هناك نوع من ردة الاعتبار أمام هذه الشائعات والظنون.

ولكن هذا التحدي الذي شعرت به تضاءل عندما تفحصت الصورة. كانت دليلاً دامغاً. لقد أبلغت روجرهنت أنها تقوم بعمل المنزل لجيسون. ولكن من أين جاء بسائر التفاصيل.. أنها تغني... والمؤسسة؟ كل الحقائق الواردة في الموضوع صحيحة. ولا يمكن أن تكون شكواها الوحيدة ضدّ هذا الموضوع، إلاّ من حيث الطريقة التي وردت فيها هذه الحقائق. ولكن حتى هنا لم تكن واثقة من الأمر تماماً.

شعرت والقطار يمضي بها أنّ عزاءها الوحيد هو أن قليلين فقط يعرفونها في لندن. ولكن هذا لا يمكن أن ينطبق على جيسون. وإذ تفجر في ذهنها هذا الخاطر، اتسعت عيناها وتورّد خدّاها. كانت مشغولة بأثر هذا المقال عليها. فلم تتوقّف لترى أنها ليست الشخص الوحيد المعني في الموضوع. هل رأى جيسون هذا العمود؟ ان كان رآه فهو يعرف ما يمكن عمله لتصحيح الأمر.

ونزلت في المحطة التالية واتصلت بالتليفزيون بمكتب جيسون. ولكن ديان كانت هي التي ردّت عليها وأبلغتها بأنه انصرف الى المنزل منذ بعض الوقت. فركبت سيارة أجرة وطلبت من السائق الذهاب الى بلمونت غاردن. وما كادت السيارة تدخل المنطقة حتى بدأت تساورها الشكوك في حكمة تصرّفها. ولكنها نحّتها بعيداً. انها تعرف بأنها الملومة. فقد تحدّثت الى الصحفي وسمحت للمصوّر بدخول الشقة ومن حق جيسون أن يحصل منها على تفسير لذلك على الأقل.

وعضّت شفتها وهي تصعد الدرج بسرعة الى الباب الأمامي وتضغط الجرس. كان قلبها يخفق بشدّة وودّت لو أن جيسون بالبيت، وأن يردّ عليها. وفتح الباب أخيراً، وكانت نبرة الصوت التي جاءتها خشنة قاسية على نحو أسوأ مما تصوّرت.

«ماذا تريدين؟»

قالت في توسل، وهي لاهثة الأنفاس:

«دعني أدخل من فضلك. لا بد أن أراك وأخبرك».

وبسطت يدها بالجريدة تحت عينيه المحترقتين ببرود الاحتقار، وبدأ ينصرف عنها. لن يسمح لها بالحديث. وهنا، وبكل قوتها، ألقت بنفسها على الباب الذي كان يغلقه، واندفعت الى البهو لتواجهه، وهي تحاول السيطرة على أنفاسها المتلاحقة. وظنّت لوهلة أنه سيقذف بها الى الخارج، ولكنه هزّ كتفيه وفتح الباب الى غرفة الجلوس وانحنى أمامها ساخراً، مشيراً لها بالدخول.

وكان أول ما رأته جريدة غلوب مفتوحة على صفحة عمود الاجتماعيات وملقاة على الأريكة. فاستدارت نحوه قائلة:

«يجب أن تدعني أخبرك كيف حدث هذا».

قال بشيء من العنف المحكوم:

«التفسيرات ليست ضرورية، فمهما كان لديك من أسباب ملتوية لتتلصصي على خصوصياتي، فلا بدّ أنها كانت أسباباً طيبة بالنسبة إليك في ذلك الوقت. ولا شيء آخر يهمه».

قالت وقد بدأت الرؤية تغيم أمامها:

«ولكن الأمر يهمه».

فقال في إعياء:

«أوه، يا إلهي يا للحيل التي لا تنتهي... كم من المرّات يتعيّن عليّ القول بأن الدموع لا تؤثّر عليّ؟»

فكبحت دموعها وارتفع ذقنها في تحديها المعهود:

«انني لن أبكي. ولكنك يجب أن تسمعني».

فجلس وحدّق فيها بقسوة وعداء، وقال:

«كلّي آذان صاغية».

فأخبرته بجلية الأمر بلقائها بروجرهنت ثم بمجيئه الى الشقة عندما كانت منهمكة في أعمال البيت، وما ساورها من شكوك في ذلك الوقت.

«ثم بعد ذلك، نسيت الأمر كله».

ولم تجرؤ على النظر إليه، وتذكيره بالأحداث التي محت كل شيء، آخر من

ذاكرتها، واستطردت:

«وأظن أنه بدأ يتحرى الأمر عن المؤسسة، وعندما اكتشف انني أعمل هناك، بدأت ذاكرته تنتبه، فكتب هذا...»

ساد بينهما صمت طويل، ثم قال جيسون، بصوت ارتعدت له كاتريونا:

«هل تظنينني مغفلاً؟ ألم يخطر لك أنه لو أبلغتني بهذا من البداية، لربما كنت قادراً على منعه قبل النشر»

«لقد... حاولت الاتصال بك».

«فليكن. ماذا منعك من أن تقولي ذلك لديان سكرتيرتي. انها قادرة على أن تكبح جماح هنت ومن هم على شاكلته. فهذا أحد الأمور التي يكافأ عنها المحررون».

«لم أفكر في ذلك».

«لم تفكري؟ أوه. لقد فكّرت جيداً. بل ربما أكون أنا الذي وضعت الفكرة في ذهنك. لقد قلت لك أنه سيكون انتقاماً مثالياً من جانبك لو قلت لأحد أنني جون ليزل. ولكنني لم أكن أتصوّر أن يذهب بك الأمر الى مثل هذه القاذورات من الأكاذيب والتلميحات. ماذا اعتراك لتقولي لهم هذا؟ ليس بالطبع مجرّد حبك للدعاية لذلك المركز؛ فلا أعتقد أنهم سيكونون شاكرين لك هذا الأمر في أي حال».

«لقد فصلوني. وهذا أحد الأسباب التي جعلتني آتي الى هنا. ظننت انني لو استطعت أن أشرح لك كيف حدث الأمر، لربما تحدثت الى السيدة هندرسون، وأقنعتها بأنّ ما نشر ليس صحيحاً».

«لن أتحدث الى السيدة هندرسون إلاّ على العشاء الليلة. ماذا حدث؟ ألم يتحدث الفتى المفتون أندرو نيابة عنك، أم هل تراجع بسرعة عندما عرف أن البضاعة قد تداولتها الأيدي من قبل»

تطلّعت إليه في حيرة وذهول، قائلة:

«هذا قول قاسٍ من جانبك».

«ربما. ألهذا السبب تفضلين نكرات لا أثر لهم مثل أندرو».

ورفع يده ليمنع صيحة احتجاج كادت تبدر من شفتيها، وأردف قائلاً:

«أوه، نعم يا كاتريونا. إنه غير مؤثر وإلاّ كان في إمكانه أن يوقف أليس هندرسون عند حدّها منذ وقت طويل. إنّ معظم أعضاء مجلس الأوصياء يؤيدونه بالفعل. وكل ما يحتاج إليه هو أن يضغط قليلاً. إنه فتى لطيف ولكنه يحتاج الى شخص آخر ليقوم عنه بالمهام القذرة. هل ترين أن هذا هو دورك في المستقبل؟»

قالت وفمها يرتعد:

«قلت لك أنهم فصلوني».

ضحك في غضب، وقال:

«لعلك نسيت أنّ الحقد يرتدّ على صاحبه. لقد أثرت غضبك حقاً في بعض الأوقات، ولكن ما الذي جعلك تقومين بهذا الفعل بحق السماء؟ لا يمكن أن تكوني، لا زلت غاضبة مني بسبب مسألة جيريمي»

«كلا».

قالت ذلك وهي تهزّ رأسها. فقد بدا جيريمي لها وكأنه ينتمي الى عالم آخر.

«ألم يخطر لك اذاً أنك اذا مثلت دور خليلتي، فلن يضرّ ذلك أحداً سواك؟ انني لا أدعي أنني أعيش كقديس. ولكن... انت... أستطيع أن أقسم وأنا أضمك إليّ أنك بريئة».

وتوقف فجأة ونهض، وضاقت عيناه كأنما ساوره خاطر مستساغ. وظلّ صامتاً لحظة وهو يحدق فيها، حتى شعرت كأنها تنكشف تماماً تحت نظرته الحادّة التي تفتشها. ثم ضحك بخفوت وبلا سرور، ضحكة أشاعت فيها الرعدة أكثر مما فعل غضبه. فتراجعت وهو يتقدّم نحوها، ويقول بصوت مفرط اللطف:

«هكذا كان الأمر اذاً. كنت أظن دائماً أنك ترفضين، في الوقت الذي كنت فيه توافقين؛ كيف فاتني أن أكون أكثر إقناعاً؟ لعلك لست البريئة التي يشي بها منظرك. ولكنك اتقنت دورك جيداً يا قرة عيني. وأعتذر لأنني خدعت فيك».

وبسطت يديها تحاول دفعه عنها:

«لا يا جيسون... أرجوك... إنك مخطئ... إنني...»

«أعتقد أنه يجب أن تنسي كلمة لا».

ولم تكن تستطيع أن تباريه قوة وهو يجذبها إليه، ويهمس في أذنها:

«يا لكاتريونا المسكينة! كل هذا التمني الكاذب، وأنا خالي الذهن تماماً! كنت موقناً انك تدخرين نفسك للزواج، ولأندرو ذي النوايا الحسنة! ولكن، لو كنت أنا من تريدينه طوال الوقت يا عزيزتي، فلا يسعك إلا أن تصدري تلميحاً بسيطاً. ولم يكن الأمر بحاجة الى إعلان يستغرق نصف صفحة في جريدة!»

كانت كاتريونا ترتعد كأنها تقف في مهب ريح عاصف. وبدت كلماته كأنها تلفح بشرتها.

«جيسون... يجب ألا».

«ولم لا. لقد اخترعت القصة الخيالية. فلماذا لا أجعلها حقيقة».

وأوشكت أن تستسلم لذراعيه. ولكنه ما لبث أن تركها فجأة وأخذ يحدق من النافذة.

«أوه يا كاتريونا.. لا أستطيع أن أفعل هذا بك. أنت شيء آخر. انت البراءة مجسّمة. ولم تتظاهري أبداً. ان هذا يفرض عليّ قيوداً. مما يجعلني أسارع باخراجك من هنا قبل أن يلحق بك الأذى. لقد جعلتك تريدينني. ولهذا لا بدّ أن أصرفك. وستشكرينني يوماً ما. ان الغرام لا يبرىء الجراح، ولكنه يفتح جراحاً أعمق. وسيأتي اليوم الذي تقابلين فيه رجلاً تستطيعين أن تهبيه نفسك بدون ندم».

ومضى الى الباب قائلاً:

«سيأتي لك بسيارة أجرة».

وعندما جاءت السيارة، كانت كاتريونا قد تمالكت نفسها، وجمعت كل ما بقي لها من كبرياء، وتجاوزته وهو يمسك لها بالباب المفتوح. ومضت بدون أن تلتفت وركبت السيارة. وبينما كانت تمضي اذ بسيارة أخرى قادمة استطاعت كاتريونا أن تلمحها تقف أمام مسكنه، لتنزل منها سوريا دين وتلحق

بالباب المفتوح، حيث كان جيسون في انتظارها، فتلقي بنفسها بين ذراعيه!

ظلّت السماء تمطر معظم النهار. وجلست كاتريونا بجوار المدفأة في مطبخ السيدة ماكغريغور تعاود قراءة رسالة سالي. لقد مرّت عشرة أيام منذ فرارها السريع من لندن الى تورفيتج، حيث الملجأ والملاذ. ولكنها كانت قد خدعت نفسها، فلم تجد هنا العزاء، بل إنّ عذاب مشاعرها ازاء جيسون قد كثّفه البعد. ولم تعرف بالضبط ما تريد أن تفعله في تورفيتج عندما غادرت لندن في ذلك الصباح، وهي لا تحمل معها في حقيبة الكتف إلاّ الضروريات. وتركت باقي ملابسها ومقتنياتها وحتى القيثار في الشقة، وكتبت الى سالي تطلب منها إرسالها. وكانت قد فكّرت في البداية أن تبقى في بيت موير، فربما تقبل السيدة ماكينتوش إيواءها مقابل أدائها بعض أعمال البيت. ولكنها اكتشفت أنها واهمة. فلم يكن العمل نشطاً على نحو يتيح ذلك، هكذا قالت لها السيدة ماكينتوش التي اشترت بيت موير على أساس أن العمل مزدهر، ولكنها أحست بأنها خدعت. وقالت إنّ الأمور اذا لم تتحسّن قريباً، فانهم سيعرضون البيت في المزاد ويرحلون الى غلاسكو.

شعرت كاتريونا بالخجل وهي تطرق باب السيدة ماكغريغور، ولكنها رحّبت بها، وقادتها الى غرفتها، وتجاهلت حتى الظلال السوداء تحت عينيها وكذلك أصابعها التي خلت من الخاتم. وتصرّفت وكأن الفترة التي قضتها كاتريونا في لندن كانت مجرد انحراف أفاقت منه الآن والحمد لله.

وفكّرت كاتريونا في أن تجد شيئاً تفعله، مثل العثور على وظيفة في غلاسكو، ولكن السيدة ماكغريغور لم تدعها تتعجّل الأمر. وكانت رسالة سالي قد اشاعت فيها الاضطراب، اذ ذكّرتها بالعالم الذي خلّفته وراءها. وتذكّرت كاتريونا كم كانت سالي معها عطوفة، في تلك الليلة، عندما وجدتها عازمة على اللحاق بأول قطار الى اسكتلندا في اليوم التالي، لم تجادلها ولم تسألها شيئاً. وكبحت هي وجولي فضولهما بنبل حول المقال الذي ظهر في الصحيفة. كذلك لم تستطع كاتريونا أن تحمل نفسها على مشاهدة البرنامج

الخاص بالمركز، فقد أصرّت على أنها بحاجة الى النوم قبل رحلتها الطويلة. وأوت الى الفراش وهي تسمع مع ذلك كلّ كلمة تصدر من غرفة الجلوس حيث كانت سالي وجولي تشاهدان البرنامج. وتظاهرت بالنوم عندما دخلتا الغرفة. وهمست سالي قائلة، وهي تتحدّث عن السيدة هندرسون:

«أشعر بالأسف لتلك المرأة. بالرغم من الأمور الفظيعة التي ذكرتها عن أهل المركز. لقد انتهت تماماً. ولا أظن أنها تدرك ما حدث لها»

طبقاً لرسالة سالي كانت الأمور قد تغيّرت بسرعة في المركز، فقد استقالت السيدة هندرسون وجرى اختيار مجلس أوصياء جديد يضمّ ممثلين عن عدّة مؤسسات خيرية كبرى تقدّمت بعروض مالية للمساعدة... وقرّر أندرو وجين الزواج خلال أسبوعين، وجاء والد كارول بارتون لاصطحابها الى المنزل العائلي. كما عاد بيرت زوج السيدة لامب بعد أن شاهد البرنامج واصطحبها مع أطفالها الى مقرّ عمله في مانشستر. ولقيت تمثيلية تحت الجلد ثناء النقاد، وقرّر هوغو انتاج مسرحية جيسون الجديدة في الخريف، وراجت شائعات بأن جيسون قد يترك العمل التسجيلي ليتفرّغ لكتابة التمثيليات. ولكنه هو نفسه يتكتّم ذلك.

وفكّرت كاتريونا بمرارة فيما لو قرّر جيسون التفرغ لكتابة التمثيليات فسيكون لديه على الأقل ممثلة تصلح لبطولاتها.

انقطع المطر عند المساء، وخرجت كاتريونا تتنزّه قرب الشاطىء، وكانت السحب قد ارتفعت عن الأفق الغربي وبدأت الشمس تغوص في البحر. ووقفت عند حافة الماء تتطلّع الى الأمواج وهي تلطم الصخور برفق تحت قدميها. وصوت طائر النورس ينعق على مقربة منها بشكل جعلها ترتعد وتستدير لتنصرف. كان هذا موطنها معظم حياتها ولكنها شعرت فجأة بالغربة والوحشة وعادت أدراجها على الشاطىء، ثم توقّفت مدهوشة، فقد لمحت ظلّ رجل يقف على حافة العشب على طريق الشاطىء، وظنته غريباً في البداية لأنه لم يلوّح لها على عادة أهل البلدة. ولكنها عندما دقّقت النظر، اتسعت عيناها غير مصدقة. وقرّ

إليها وتقدّم نحوها وحيّاها. قالت بصوت مرتعد:

«جيسون! ماذا تفعل هنا؟»

«طلبت مني سالي أن أحضر حاجياتك من لندن»

لم تكن تتوقّع هذا القول، وشعرت بالعجز يتملّكها:

همست، «أنت هنا في أجازة أو لشيء من هذا القبيل»

«لشيء من هذا القبيل»

«لقد أخترت المكان الخطأ»

«لم يكن الخيار من صنعي. أوه يا لله... هل يجب أن أكاشفك بالأمر؟»

بدأت الفرحة تتصاعد في أعماقها.

«نعم»

«أنا هنا لأنك هنا. لأنّ هذا المكان هو الذي يجب أن أكون فيه. وإذا هربت مني مرّة أخرى، فسأظل أتبعك حتى أفوز بك وأعلّمك بألاّ تخافي. لا تخافيني ولا تخافي الحياة»

همست إليه، والفرحة تبدو في وجهها وترتعد في ابتسامة على شفتيها وتتألّق في عينيها:

«لست خائفة، وأنا ملك لك إذا أردتني يا جيسون»

احتضنها قائلاً:

«والآن أخبريني لماذا هربت؟ لم أصدّق ما قالته لي سالي في اليوم التالي عن تصفيق. كنت قد أعددت خطة لمغازلتك تتضمّن زهور وتذاكر للمسرح وعشاء الأثنين، وحتى تصريحاً يحرق الآن جيبي»

«تصريح؟ أتريد أن تتزوجني؟»

«وماذا غير ذلك؟ هل هناك حلّ آخر؟ لقد أخفقت كل محاولاتي لاغرائك. وآمل أن يكون لي حظ أفضل ليلة الزفاف»

داعبت وجهها، وأخفته في قميصه بغمغمة غير مفهومة. قال:

«سيكون هذا قبولاً لطلبي. وأعتقد أنّ الخطبة لمدة أربع وعشرين ساعة فقط هنا

ما أستطيع تحمّله».

«وماذا عن موبرا؟»

«لقد انقضى ذلك منذ وقت بعيد. انني أراها من حين لآخر، ولكنها كانت جزءاً من الدفاع الذي حاولت أن أبنيه ضدّك».

«ولكنها جاءت الى الشقة في ذلك اليوم، وأنا خارجة».

«جاءت فعلاً. كانت قد تناولت الغداء مع هوغو وأبلغها أنه ينوي مسرحيتي الجديدة. فجاءت لترى ان كان هناك دور لها. وسرعان ما فقدت اهتمامها بي عندما لم تجد اهتماماً مماثلاً. وأخبرتني كذلك بشيء آخر، أنها المسؤولة عن ذلك المقال في الصحيفة. ربما لم يكن هنت ليأبه بنشره ولكنها طاردته من أجل ذلك».

«ولماذا؟»

«لأنها تعلم انني سأكره ذلك. فأنت تشكلين خطراً عليها، فلجأت الى أفضل وسيلة رأتها، لقتل أية علاقة كانت قد تنمو بيننا».

«ولكنك عندما تركتني بعد حفلتها، عدت إليها مرة أخرى»

«عدت الى الحفل وليس إليها. كان المنتج التنفيذي وآخرون هناك، وأردت أن أحدثهم عن فكرة اظهار مؤسسة هندرسون في البرنامج. كنت تغارين اذاً من موبرا... والآن تعلمين ما فعلته من أجلك».

«لا يمكن أن تكون قد أبديت غيرة من جيريمي فأنت عرفت من البداية أن هذه العلاقة لن تفلح».

«لم أكن أفكر في جيريمي، بل ظننت أنك وقعت في حب أندرو ميلز».

حدقت فيه غير مصدقة.

«أندرو! ولكنه يحب جين».

«عرفت ذلك أيضاً. كنت خائفاً عليك يا حبيبتي، ومؤمناً أنك ستصابين بالخيبة في الحب مرة أخرى».

«ظننت أنك تأسف عليّ لأنك خمّنت أني أحبك».

«كلا. لم أخمّن ذلك أبداً. كنت مشغولاً بمقاومة مشاعري على نحو جعلني لا

أخطىء قراءة الموقف. لكنني عرفت في المسكن ذاك اليوم، عندما حاولت عناقك بأنني لا يمكن أن أرضى بمثل هذه العلاقة، وانني أريدك في الحق دائماً معي كزوجة. ولم أكن موقناً أنك تريدين أن أكون لك زوجاً. فأنا شيء المزاج، وأحب العمل بطريقتي. وكل ما أستطيع أن أقوله لصالحي هو أنني أحبك».

«هذا أكثر من الكفاية بالنسبة إليّ».

«سالي هي التي هدتني الى الطريق السليم. ذهبت إليها غاضباً وطلبت أن أعرف أين ذهبت فسلّمتني بهدوء قصاصة بها عنوانك وطلبت مني أن أحمل ملابسك معي. فهي توفّر ثمن شراء ملابس العرس ولطمتني بقوة ووصفتني بأنني مغفل أناني، أعمى النظر».

«وأين ملابسي؟»

«في صندوق السيارة، على الطريق. ولكنني لا أعرف أين سأقضي الليلة».

«أظن ان السيدة ماكغريغور ستجد لك ركناً».

«أتقيمين هنالك؟ كلا يا حبيبتي. انني أفضل أن أظل على مبعدة عنك حتى نتزوج. لا أريد أن يجمعنا سقف واحد إلاّ بعد أن يجمعنا عقد الزواج».

قالت، وعيناها ترقصان:

«هناك بيت موري انني أعرف أن السيدة ماكينتوش ستغتبط ولكن لا بد أن تذهب معي الآن يا جيسون. ان السيدة ماكغريغور لن تصفح عني أبداً اذا لم آت بك على العشاء».

«أستطيع أن أثق بنفسي لتلك الفترة فقط أوه يا حبيبتي... لو كانت لديك رحمة فلا تجعليني أنتظر طويلاً».

وكانت السيدة ماكغريغور تجلس بجوار المدفأة عندما دخلا، فتطلعت اليهما، وقد أدركت الموقف من نظرة واحدة.

«حسناً يا كاثريونا... أهذا هو رجلك؟»

قالت كاثريونا:

«نعم، انه حبيبي...»